التغوط عند شاطئ النهر

رواية



د. حامد العطية

2025

التغوط عند شاطئ النهر

رواية

د. حامد العطية

2025

استيقظ جبر على تأوهات زوجته الحامل، قالت له بصوت ضعيف:

- سأولد الساعة!

سارع جبر إلى خارج كوخه لينادي على جاره، ورافقه صراخ زوجته حتى باب الجار، سمعتها زوجة الجار فخرجت مسرعة وسألته:

- هل تدل بيت الداية أم خريبيط؟
- إنشا الله إنشا الله!

وهرع مبتعداً صوب الجماعة القريبة. بعد قليل عاد ومعه الداية، وعند كوسرة كوخه سمع أول صرخة لوليده:

- هذا صريخ ولد! أريد الحلاوة أبو غائب!
- عند عينك أم خريبيط!

وقف عند باب الكوخ وأرهف السمع لصراخ وليده، قال لنفسه:

- هذا يبكي أم يقرأ قصيدة؟

لذلك سماه عصفور. تعددت صفاته المميزة، استعجل الحبو، وحبوه مختلف أيضاً، سير حبوه مستقيم، يبدأ عند أسفل سريره الهزاز ويتحرك باستقامة حتى باب الكوخ المغلق، يجلس ثم يبدأ الحبو نحو السرير، وبهمة فلا يلتفت يميناً أو يساراً، حتى توهمت زوجته بأنه مصاب بالعين، لأنه بكرها، فنذرت التضحية بديك هراوي لأبي خربة، يظنون أن ولياً صالحاً مدفون تحت أطلال جدران وسط اكواخهم، يسلّمون عليه كلما مروا بقربه، وتشعل نساؤهم الشموع عند جداره المتصدّع ليالي الجمع.

أرسله والده ليتعلم القراءة والكتابة والحساب عند الملا، فختمها في عام واحد، ولو كان في القرية القريبة مدرسة لسجلّه بها، أراد جبر تعليمه الزراعة، فهي مهنة متوارثة، بعد استلامه بذور الشلب (أرز العنبر) من سركال الشيخ. فرش جبر البارية المصنوعة من قشرة القصب ورشها بالماء ثم نثر البذور عليها. تابع عصفور العملية، وداوم على مراقبة البذور حتى استوت على سوقها، وحان وقت شتلها، ورافق والده إلى الحقل ليتعلم منه كيفية الشتل، في العام التالي توسل له ليدعه يتولى نثر البذور، فقبل. بدأ بذرعة البارية طولاً وعرضاً بقدمه الحافية، ثم جلب طاسة صغيرة من والدته، واستعملها في كيل البذور في أكوام صغيرة، وبدأ بنثرها، ولكل مسافة قدم كومة من البذور، حتى لم يبقى على البارية مكان إلا نال حصته من البذور، وفضل حوالي ثلث الكمية التي زودهم بها وكيل الشيخ.

- ماذا نفعل بالبذور الزائدة؟

سأل جبر نفسه بصوت مسموع.

تجرأت زوجته وأجابت:

- بيعها حرام وأكلها حرام. حتى نخلص من عذاب الله رجعها للشيخ.
- وإذا ما نبتت الشتلات؟
- انتظر أسبوعاً أو عشرة أيام بالكثير.
- أفضل لو انثرها كلها؟
- انتظر يا رجل! ابنك حسبها صحيح، ولا تنسى هو يقرأ ويكتب ويحسب أحسن مني ومن كثير من الزلم.

لم تقل له أحسن منك أيضاً، لئلا يغضب ويهينها.

تصور جبر منظر السركال والشيخ وهو يعيد لهم وزنة من البذور، في حياتهما لم يشهدا مثل ذلك، في العادة ينثر الفلاحون حوالي نصف كمية البذور ويبيعون المتبقي على احد أصحاب الحوانيت في أم السرجين، ويقبضون ثمنهاً شاياً وسكراً وربما أمتاراً من القماش لملابس عوائلهم، وما يخشاه أن يجمع الشيخ فلاحيه ليريهم البذور التي سيرجعها فيكرهه جيرانه وبقية الفلاحين.

لو نبتت كل البذور وغطت البارية فسيعيد البذور للشيخ وإلا اضطر لإنباتها من جديد، وستضيع عليه فرصة الحصول على محصول مبكر، المفضل لدى الشيخ لأن أسعاره أعلى من المحصول المتأخر. أرّقه التفكير بذلك ليالي معدودات، لكن تعب النهار في الحراثة وكري قناة الري والبزل كان الأقوى عند المساء. في كل صباح مرّ على باريته مترقباً ظهور أول هامة خضراء.

كان فرحه بالبساط الأخضر الذي اكتست به البارية ممزوجاً بمقدار من الحسد لابنه الصغير، لكن فرحه كان الأقوى، وعاد للتفكير بما سيفعل بالبذور الزائدة وما سيسمعه من ثناء من الشيخ وتخوفه من إثارة غضب جيرانه، فقرر تأجيل ذلك حتى نهاية الشتل.

حان وقت الشتل. أستيقظ جبر قبل الفجر. صلى ودعا بالتوفيق من الله، ثم تناول افطاراً بسيطاً، كسرة من الخبز مغمسة في استكان شاي، وقطعة زبدة صغيرة من خضّ لبن بقرتهم بالأمس تقاسمها مع عصفور. بدءا باستلال الشتلات من البارية ووضعها في كيس مبلل.

عند إشرافهما على شِقّة الأرض المخصص لجبر كان الصبح قد انجلى وشاهدا الحقول التي ستزرع بطريق الشتل مغمورة بالمياه، وحدها شِقّة الأرض المخصصة لجبر ثبتت على عرضها وطولها أوتاداً. تعجب واستاء جبر ظناً بأن أحد جيرانه أراد تخريب شتله. لمح عصفور ملامح الاستياء على وجه أبيه وقبل أن تتحول إلى غضب سارع لطمأنته:

- أنا وضعت هذه الأعواد لتساعدنا على الشتل.

سأله أبوه بتهكم:

- كيف يا فهيم؟

تراجع عصفور خطوات توقياً لصفعات وركلات أبيه ثم أجابه:

- كل شيء بحساب مثل الإنبات. نضع شتلاتنا على نفس الخطوط طولاً وعرضاً وبهذه الطريقة لن تزيد ولن تنقص الشتلات.

سحب جبر نفساً عميقاً، وجلس على حافة قناة الري. تناول علبة التبغ المعدنية من جيب صفحة ثوبه، وأخرج منها ورقة عبئها بالتبغ وبلّل طرفها بلسانه ثم لفّها بعناية من دون فقدان قطعة تبغ واحدة. بعد الحصاد وقسمة العائد يدلّل جبر نفسه بشراء رزمة من سجائر المزبن من جار زوجته بارعة في إعداد المزبن.

بعد الانتهاء من تدخين سيجارته بصق وقام وهو يهمهم:

- آخر زماننا نأخذ الشور من فروخنا! يمكن قرب ظهور إمامنا صاحب الزمان عليه السلام.

أردف مخاطباً ولده:

- أنت أخذها بالطول وأنا أخذها بالعرض. هل فهمت؟

كان لا بد أن تكون له الكلمة الأخيرة وإلا يفقد هيبته، والرجل الذي يفقد هيبته في بيته لا هيبة له في العشيرة وعند شيخها. والشتل بطول شِقّة الأرض سيتعب عصفور ولعله يتوب عن التذاكي على أبيه بعده.

- حاضر وعند عينك!

بعد الانتهاء من الشتل كانت الشمس تسير نحو المغيب وكأنها تلكأت فوق نخلات الشيخ لتلقي نظرة أخيرة على جبر وعصفور وحصيلة كدهما ذلك اليوم. قلّب جبر نظراته بين شِقّته وشِقق الفلاحين القريبة منه ولاحظ الفرق. شتلاته منتظمة ومرتبة أو كما يسميها الشيخ "مهندسة" على عكس جيرانه، وخمّن عصفور ما يدور في خلد ابيه فشعر بالفخر، وكتم ابتسامة اعتزاز بنفسه لئلا يراها أبوه.

- الله يستر ما تدخل فيها بقرة أحد الجيران أو جاموسة من جاموسات الشايب جسب وتخربها!

تردّد عصفور إلى شِقّ ابيه كل يوم، تفحص الشتلات ليتأكد من نموها وخضرة أوراقها وارتواءها، قضى ساعات على جرف قناة الماء ليحرسها من اعتداء بقرة أو جاموسة جسب، لكنه لم يدر بأن شِقّ أبيه قريب من الهور المسكون بخنازير برية، وذات يوم باغته بروز ذكر خنزير بري ضخم من بين القصب والبردي، لكنه تمالك جأشه، ولم يشلّ الخوف قدميه حتى يهجم الخنزير عليه، ويبقر بطنه، أو يشِقّ فخذه بنابيه. وضع طرف ثوبه بين أسنانه وأطلق سيقانه للريح، ولم يتوقف حتى بلغ باب بيته، وانتظر حتى استرد أنفاسه لئلا يدخل على

أمه بذلك الحال فتصاب بالذعر وتقسم عليه بحليبها بأن لا يتردّد على شِقّ ابيه بعد ذلك اليوم.

بعد عودة أبيه من مضيف الشيخ سأله عن الخنازير البرية، وكأنه كان بانتظار السؤال، فراح يسرد على عصفور قصص فلاحين مع خنازير برية، واستغرق في وصف جثة فلاح أو الباقي منها بعد أن نهشتها خنازير برية، فاستعطفته أمه:

- أبو عصفور أخاف يخترع عصفور!

فرد عليها بنبرة استنكار واثقة:

- هذا ابن أبيه لا يخاف حتى من الذئاب والسباع. تمام عصفور؟

فأجابه بالإيجاب.

- الشيخ نوى قتل الخنازير في الهور القريب. الخنازير حيوانات لعينة تخرّب الزرع، وإن شاء الله نأخذ البندقية ونركب سوية قارباً لنصطاد خنزيراً أو إثنين.
- صحيح فيه ناس يأكلون الخنازير؟
- أكيد! جنود الإنجليز كانوا يصطادونه ويشوونه ويأكلونه. خدودهم موردة مثل بطون خنزير.

امتعضت أمه:

- استغفر الله.

لم يتوقف عصفور عن تفقد شِقّ أبيه، وانتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يصاحبان الشيخ وعدد من رجال القرية الأشداء لقتل الخنازير.

بعد أيام أخبرهم أبوه بأن الشيخ كلّف أخاه زايد بتشغيل مضخة الماء، وسيحضر في المساء لتناول العشاء معهم. اهتم عصفور

بعمه، مبدياً له الاحترام المستحق. قبلّ يده ورفعها إلى جبهته، وسقاه الماء والشربت والشاي، وجلب مغسلة الصفر ومنشفة الضيوف والصابونة المعطرة وصب الماء على يديه، وأسرّه ثناء عمه عليه.

انتظر عصفور أياماً ثم زار العم في المضخة، فرّحب به العم، كان عصفور متلهفاً لمعرفة كل شيء عن المضخة، فهو لم يرّ في حياته واحدة مثلها، سمّع بأن أخاً للشيخ اشترى جراراً ليحرثوا به الأرض لكنه لم يره، والأعجب منه المضخة التي تعب ماء النهر وتقذفه في قناة الري الرئيسية، يسمون الجزء الغاطس في الماء من المضخة الخنزيرة، فسأل عمه عن السبب فأجابه لأنها ترقد في الماء مثل الخنازير، بعد أشهر حضر مفتش زراعة مع رجل أشقر قالوا بأنه إنجليزي لأن كل الرجال الشقر إنجليز، لكنه لم يصدّقهم لأن جيرانه الشهبان شعرهم أبيض وهم لا يخرجون من بيتهم إلا بعد مغيب الشمس ولكن ليس كل من شعره أبيض أشهب.

دفع الفضول عصفور لسؤاله عن الخنزيرة، فضحك المفتش ورطن مع الإنجليزي فضحك هو الآخر، تبين بأنهم يسمونها خنزيرة لأنها تصدر أصواتاً مثل الخنازير أثناء سحبها لماء النهر، وصار الإنجليزي الأشقر يصدر أصواتاً قلد فيها صوت خنزير أو هكذا افترض عصفور، ومنذ تلك اللحظة كره عصفور جميع الإنجليز والشقر وسيزداد كرهاً لهم عندما تحتل قواتهم بلده.

حرص على زيارة عمه في المضخة في اليوم الذي قرر فيه تفكيكها لإصلاح عطل بسيط اوقفها عن العمل، جلس غير بعيد على فلقة من جذع نخلة يراقب عمه وسجل دماغه كل خطوة وحفظ صوراً ذهنية عن أدوات عمله، ووعد نفسه بمساعدة عمه كلما احتاج لإصلاح المضخة، تكرّرت العطلات فتكرّرت زياراته حتى ظنّ نفسه

قادراً على المشاركة في إصلاح عطلات المضخة. في زيارة لعمه عند مضخة الماء وجد فلاحين واقفين عند الباب وقد بدت على وجوههم علامات التذمر ولاحظ صمت المضخة وغياب عمه.

خاطبه أحد الفلاحين بحدة:

- أين عمك؟ المضخة خربة وعمك نائم ورجلاه بالشمس.

تلكأ في الإجابة.

- عمي أكيد مريض أو ...
- اسمعوا الصبي الملعون يدافع عن عمه. اذهب واسأل عنه؟

امتثل عصفور لطلب الفلاح الغاضب وأسرع نحو كوخ عمه غير البعيد، فوجده راقداً في الفراش وأخبره بصوت ضعيف بأنه مريض ولا يستطيع مغادرة البيت.

عاد عصفور ليخبر الفلاحين بمرض عمه فانصرفوا مستائين. ما أن ابتعد أخرهم حتى استخرج عصفور العدّة التي شاهد عمه يستعملها في تفكيك المضخة وإصلاح عطلاتها، وتمنى ألا تكون الخنزيرة سبب توقف المضخة. توكل على الله، وبدأ بالعمل، من حظه الجيد اكتشف العطل بسرعة وأصلحه ثم نقل الماء لتلقيم المضخة وأدار عتلة التشغيل بصعوبة بالغة، وبعد عدة محاولات مضنية دوى صوتها مجلجلاً، حتى سمعه فلاحون فحضروا متوقعين رؤية عمه عند المضخة وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما وجدوه وحده وقد تسخّم وجهه وثوبه بزيت ووقود المضخة.

قضى ذلك اليوم بجانب المضخة، وعند الظهيرة حضرت صبية من عائلة فلاح فرح بعودة الحياة للمضحة وبيدها قرص خبز طازج من

تنورهم بداخله غموس من رأس فجل وحزمة كراث وبصل، تلكأت عند باب غرفة المضخة فدعاها لمشاركته الغداء لكنها ابتعدت مهرولة.

عند المغيب أقفل عائداً إلى كوخ عائلته، مشى ببطء ليفكر فيما سيقول لأبيه، واحتمال استياءه من تصرفه، لأنه أقحم نفسه في عمل عمه، ولن يشفع له تشغيل المضخة ورضا الفلاحين عنه الذي عبروا عنه بكلمات الثناء وغداء من البقوليات. ارتاحت نفسه لأن أبيه لم يعد بعد من مجالسة الشيخ في المضيف كعادته كل ليلة، ورفض دعوة أمه لتناول الطعام، ولم تعلق على مغامرته مع المضخة، وكان يغط في النوم عندما حضر أبيه ليقصّ على زوجته مأثرة ابنها واعجاب الشيخ بعقله، وأعطاه ربع دينار ليعطيها لعصفور مكافأة على اصلاح عطل المضخة. صباح اليوم التالي بشرته أمه بفرح أبيه ومكافأة الشيخ له بمئة فلس، فأعادها عصفور لأمه لتشتري بها عصابة جديدة لرأسها بمناسبة العيد المقبل.

مع غبش الفجر يمضي عصفور لتفقد شتلات أبيه، ويفرح لأنها الأكبر وأغمق خضرة والأسرع نضجاً من شتلات بقية فلاحي الشيخ، وسمع من أبيه بأن الشيخ لاحظ ذلك، فطلب من أبيه الإشراف على الشتل في الموسم القادم، وبقدر فرح أبيه استاء وكيل الشيخ خوفاً على وظيفته ومكانته بين القبيلة، لكنه أخفى قلقه وتظاهر بعدم الاكتراث وانبرى للقول بأنه سيتأكد بنفسه من اتباع الفلاحين لطريقة جبر في زراعة الشتلات وسقيها.

ما بين كوخ عائلة عصفور وشِقّة أبيه ساقيتان لري المزارع وضعوا عليها قنطرتين من جذعي نخلتين، يسير عليهما عصفور بحذر شديد لئلا يقع في الساقية فيبتل ويتطيَّن ثوبه، ويتذكر قول أمه الذي لا

تكل ولا تمل من ترداده: امش شهراً ولا تعبر نهراً، لكن لا مناص من عبور الساقيتين العريضتين والمخاطرة بالتعثر بكرب جذع نخلة والسقوط في مياههما الموحلة السريعة، وسيتعرض لسخرية أبناء جيرانه الفلاحين وحتى الكبار منهم حتى بلوغه كوخهم في الطرف الثاني من ديرة الجماعة، وسيغذ المشي ولن يتلكأ عند مزار أبي خربة ليسلم عليه ويقرأ سورة الفاتحة. في يوم ممطر عاصف واتته فكرة تهذيب القنطرتين، وصمم على القيام بذلك بعد انقضاء العاصفة، فما أن انجلت آخر غيمة سوداء من وجه السماء حتى هرع إلى مضخة الماء ليستعير من عمه قدوماً ، وتوجه إلى القنطرة الأولى وباشر بتكريبها، ولم يتوقف إلا عند اقتراب أحدهم لعبور القنطرة، ليشرح للفضوليين من العابرين عمله، ومضى بعضهم وهو يهز رأسه عجباً واستهزاءً من الشاب الصغير الذي يجهد نفسه في عمل غير طائل، استمر في تشذيبه للقنطرة حتى صيرها شبه مسطحة، واعرض من السابق، وكان أول من عبر عليها، ليختبر سهولة المشي عليها، من قبل احتار أين يضع قدميه بين كربها الناتئ أما بعد تسطيحها فسهل عليه تثبيت قدميه عليها والسير بثقة ومن دون قلق أو ذعر. ألقى عليها نظرة أخيرة راضية ثم توجه إلى القنطرة التالية ليهذبها.

شاهده أحد الفلاحين يكرّب القنطرة وتندر بالقصة في مضيف الشيخ مما أثار فضول الشيخ الذي أعجب بشتل عصفور وإصلاحه مضحة الماء، وفي صباح اليوم التالي ذهب هو وأزلامه إلى الساقيتين اللتين ترويان زرعه وتعمّد العبور على القنطرتين المعدلتين من قبل عصفور، ووجد سهولة في الحفاظ على توازن جسمه البدين عليهما، وحتى ولده الصغير حامد الذي يرتعب عادة من العبور على قنطرة فيأمر الشيخ أحد مرافقيه بحمله على كتفه

فيسمعه الفلاح همساً مسبات للشيخ وعائلته تشجع وعبر عليها بقدميه مما أفرح الشيخ كثيراً، فأمر بإحضار عصفور ليأمره بتسطيح بقية القناطر على سواقي أرضه، وبعدها بأسابيع سمع بقية الشيوخ والسادة العلويون مالكي الأراضي بالقناطر المسطحة فطلبوا مساعدة عصفور في إنجاز العمل، وكافأه بعظمهم بمبالغ صغيرة من المال، سلمها لأبيه الذي بدوره حفظها في صندوق "الفاتية" المتبقي من أثاث عرسه.

هطل مطر غزير، فاجأ أمه العائدة من زيارة بيت أخيها، ولم تجد مكاناً تأوي إليه حتى يتوقف المطر، وبعد سير طويل تحت المطر وصلت بيتها، ترتجف من البلل الذي تشبعت به ملابسها حتى التصقت بجسدها الضامر. في اليوم التالي اشتكت من الحمى وظلت راقدة في فراشها لا تستطيع الحراك أسبوعاً كاملاً، تعلم عصفور أثناءه طبخ طعامهم، وجلب المياه من شريعة النهر القريبة، والاعتناء بوالدته. بعد شفاء والدته واستعادة عافيتها وقوتها صمم عصفور على صنع مظلة تقيهم حرارة الشمس وبلل المطر. ترجّى والدته تعليمه خصف ورق النخيل فرفضت في البدء لأنه عمل النساء ولا يليق بالرجال، وبعد إلحاح متواصل وافقت. تعلم الخصف بسرعة، ثم تسلق نخلتهم الوحيدة واقتطع منها جريدتين بورقهما الأخضر، وابتدأ يخصف الورق في شكل دائري شبيه بالمظلات الحديثة التي شاهدها في مجلة وجدها عمه مرمية في سوق بلدة أم السرجين. أتمّ المظلة الدائرية الشكل واختبرها بصب الماء عليها فلم تنفذ منها قطرة واحدة إلى الأرض، وجاء بإحدى الجريدتين المجردة من ورقها ودسّها وسط الدائرة المخصوفة فغدت أشبه بالمظلة في المجلة. في يوم ماطر احتمى بها أبوه في طريقه إلى

مضيف الشيخ، واستقبله الشيخ وزواره بعاصفة من الضحك، واسمعه بعضهم عبارات الاستهزاء والاستخفاف، لكن الشيخ نهرهم وأسكتهم، وطلب من جبر الاقتراب منهم ليلمس رأسه وثيابه فوجدها ناشفة تماماً فازداد عجباً بالمظلة الجميلة. استفسر من جبر عن المظلة ومن صنعها وثمنها، فأجابه بأنها من عمل ولده عصفور الذي طلب منه تقديمها للشيخ هدية من جبر وعائلته، فقبلها الشيخ وأمر عبده بحفظها بجانبه والحرص عليها واحضار كيساً من الشاي وآخر من السكر لجبر، ففرح جبر.

لم يتقدّم عصفور سوى خطوتين أو ثلاث، كان في طريقه إلى حقل متروك نمت فيه حشائش ونباتات برية ليحشّ منه علفاً لبقرتهم وعجلها الوحيد عندما سمع الصوت المفجوع:

- وليدي!

صوت أم ملهوفة على ولدها وعلى بعد خطوات من النهر، لا تفسير له سوى احتمال غرق ابنها في النهر، لو أسرع أحدهم لنجدته فقد ينجو، الاحتمال ضئيل لكنه لم يتردّد. رمى بالمنجل جانباً وهرع نحو النهر. خلع ثوبه وبلباسه الداخلي رمى بنفسه في النهر. لم يشاهد جسد آدمي فوق سطح الماء فغطس. عندما يكون النهر مليئاً يكون ماؤه عكراً فتصعب الرؤية داخل النهر، ومنذ أيام لاحظ انخفاض منسوب الماء حتى تبددت بعض عكرته. يعرف عصفور خريطة النهر الغادر، أغلب ضحاياه من الأطفال، يتهورون بفعل تحريض أقرانهم الخبثاء بعيداً عن أنظار أمهاتهم المنشغلات ببقية الذرية والآباء الكادحين في الحقول فيلتقمهم النهر الجائع لأجساد طرية وتسحبهم تياراته بعيداً حتى ينهكهم التعب وتخرس أصوات استغاثتهم. وفي جوانبه مغارات من يدخل فيها لا يخرج، وفي قعره ثقوب تمتص مياه

النهر وتحملها إلى آبار وينابيع في وسط صحراء البدو. سبح نحو أول مغارة فأثار اقترابه فزع مجموعة من سراطين النهر فتراكمت وهي تحرك مخالبها لتردعه عن التقرّب. وجده في المغارة الثانية، فسارع لحمله والصعود به إلى سطح الماء. ما أن شاهدتهما أمه حتى خاضت في الماء عند الجرف وتلقفته. حركته فلم يستجب، وظلت تمسح على بطنه وصدره حتى أخرج الماء من جوفه وشهق شهقة واحدة جاوبتها أمه بصرخة الملتاعة، ثم فتح عينيه وبكى لبكاء أمه. حملته إلى كوخها من دون نظرة واحدة على عصفور. خرج من الماء وتوجه لحشّ العلف.

لم يتوقع عصفور شكر عائلة الطفل الذي أنقذه من الغرق، فنفوس الفلاحين القبليين طافحة بالسخط على كل شيء، في الأرض والسماء، فلا موضع فيها للشكر، ربما تذكروه بدعاء، وأعجبوا بسرعة تفاعله مع الموقف الحرج، كثيرون غيره يشلّهم الخوف والرهبة، يسمونها أم الحربوكة، هكذا يلقون اللّوم على خرافة ويبرؤون نفوسهم الجبانة.

استرجع عصفور مشهد الطفل ما بين الحياة والموت، لو تأخر دقائق عن إنقاذه لأخرجه جثة هامدة. تذكر صورة في إحدى مجلات عمه الإنكليزية، طفل صغير يداه مغطيتان بنفاختين ويطفو على سطح ماء بركة كبيرة داخل منزله، وفي زاوية الصورة امرأة مبتسمة خمّن عصفور بأنها والدته تنظر إلى طفلها باطمئنان من دون قلق على سلامته. لكن أين يحصل على نفاخات مثلها؟ اهتدى عقله للكرب، متوفرة بعدد النخيل ومجانية. اختار كربتين من خزين بيتهم من الحطب، وطفق يهذبهما بالمنجل، ثم شدهما على عضديه، ونزل في النهر. تابعه أطفال، تركوا ألعابهم ووقفوا ينظرون باستغراب

لعصفور والكربتين المشدودتين على يديه. ساعدته الكربتان في الطفو على الماء لكنهما لم تكونا كافيتين لإبقاء جسده فوق الماء من دون تحريك يديه وقدميه. خرج ليضيف كربتين آخرتين حول يديه وعاد إلى النهر فكانت النتيجة أفضل، ولو شدّهما طفل صغير على يديه لربما طفا على الماء من دون الخوف عليه من الغرق وحتى لو جرفه التيار فسيدركه أحدهم لإخراجه قبل أن يبتعد، لكن الأفضل من الكرب النفاخات في الصورة. قضى عصفور بقية النهار في التفكير ببديل للنفاخة، فلم يجد أقرب إلى ذلك من "السقا" الذي يمخضون فيه الحليب لاستخراج لبنه وزبدته. في القرية عبر النهر جزار هو الوحيد في صوبي النهر، قصده عصفور للحصول على معدتي خروفين صغيرين، فوعده بذلك مقابل درهم. بعد تنظيف المعدتين شدّهما على خصره ونزل النهر فطاف حتى وسطه. بعد عدة محاولات فاشلة نجح في ربط القربتين حول قدميه، وأحضر مردياً. أبقته القربتان واقفاً على سطح الماء، واستعمل المردي للحفاظ على توازنه والتجديف حتى الضفة الأخرى، وعاد ليجد جمعاً من الرجال والنساء والأطفال بانتظاره. هلّل الرجال وزغردت النساء وصفق الصغار. تقدمت امرأة عجوز وسارعت لتقبيل يده قبل أن يتمكن من سحبها وهي تتمتم بعبارة :

- داخلة بختك! مريضة وتريد منك الشفاء.

ظنت المرأة بأنها شاهدت معجزة وعصفور من أولياء الله الصالحين المستجاب دعاؤهم، ولم تقتنع بإنكاره ذلك.

قبل نضوج الأرز بشهر غار ماء النهر، وانكشفت "الخنزيرة"، وتوقف عبّها لماء السقي، فذعر الشيخ والفلاحون، وخشوا من ضياع الموسم، سمع الشيخ يردد:

- سقية واحدة فقط يا ناس كل ما نريده ولو نشف النهر تماماً بعد ذلك فلن أشيل هماً.

تجرأ فلاح كبير السن ظناً منه أن شيخوخته ستحجز الشيخ الغاضب عن إهانته:

- محفوظ! هذي مسؤولية الحكومة والري؟

استعر غضب الشيخ ثم هدأ قليلاً:

- عمي أبو الهوش دخيل شيباتك! كلمتهم وقلت لهم نريد ماء، ولو حسوة، للزرع قبل أن يموت. ما بقى بالنهر سوى أقل من بول وخراء أفندية بغداد والدليم والحلة، هي مجاري الأفندية أين تذهب؟ غير بهذا النهر ونحن نشربها ونسقي زرعنا منها.

ساد صمت متوتر في المضيف، فليس من عادة شيخهم التفوه بمثل هذه الألفاظ، لكنهم قالوا في سرهم: شيخنا بخيت فليتحدث كما يشاء.

من الطرف البعيد للمضيف بالقرب من العبد المكلف بإعداد وصب القهوة والقابع بين الدلال الكبيرة والصغيرة وجرن طحن القهوة النحاسي وأكياس القهوة والسكر ارتفع صوت فلاح:

- هذا عمل شيخ الصفافيق سواها وقطع الماء عنا. هذا مثل البعير ما ينسى عدوه.

رد الشيخ عليه:

- أنت تتكلم عشرة بالشهر. هذاك الشيخ الأرعن مات وشبع موتاً الله خلصنا منه.

ساد الصمت إلا من سعال مسلول وطرقعة زناد مدخن وطقطقة مسابح.

- صب قهوة يا ولد!

شرب الشيخ ثلاثة فناجين قهوة عربية مرة وشرب الحاضرون فنجاناً لكل واحد منهم. أغمض الشيخ عينيه لوقت غير قصير حتى ظنّ بعض الحاضرين بأنه نام، ثم اعتدل فجأة في مجلسه وصاح:

- أين عصفور؟ اندهوا عصفور!

لم يكن أبو عصفور بين الحاضرين، فاحتار الحاضرون في الاستجابة لشيخهم حتى تذكر أحدهم ذلك الشاب النحيل الذي أصلح مضخة الماء وسطّح قناطر جذوع النخيل فنهض مخاطباً الشيخ:

- أروح وأحضره الساعة.
- إذا ما لقيته في بيته تجده عند عمه في المضخة أو يعلم الأطفال.

وجده الفلاح عند المضخة والعم مستغرق في النوم، وعاد بمعيته إلى المضيف.

سمّر الشيخ نظره على الشاب الوجل حتى اضطره لغضّ بصره:

- عصفور! ماء الشط نقص والخنزيرة حلقها مفتوح ولكنه جف وإذا ما نسقي زرعنا سيموت وكل تعبك بالشتل سيروح. أريدك تفكر لنا بطريقة نسقي بها زرعنا ولو مرة واحدة بالمضخة. أريدك إبني تفكر وتلاقي لنا طريقة.

فرح عصفور بكلمة إبني الخارجة من فم الشيخ ما بين سن ذهبي وآخر فضي، لكنه تخوف من المهمة الصعبة التي كلّفه بها. إذا كان

مهندس الري وموظفيه فشلوا في تلبية طلب الشيخ فهل يقدر هو على ذلك. لم تفارقه نظرات الشيخ الحادة حتى المخرج:

- عند عينك عمي. أنت تأمر وانشا الله أنفذ.
- لو نفذت ما أريده سأعطيك 20 ديناراً ولوالدك أحسن شِقّة أرض وسأخذه معي لزيارة الأئمة عليهم السلام.

غادر عصفور المذعور المضيف واتجه مباشرة إلى المضخة. أيقظ عمه وأخبره بطلب الشيخ، فذهل العم :

- أنت ورطت نفسك يا عمي! إذا ما تفتح الحكومة السّدّ لا يمكن تنفيذ طلب الشيخ.
- وعدني الشيخ بعشرين دينار لو فقط اشتغلت المضخة لنصف يوم لكن لو فشلت...
- الله كريم، يمكن الله يهدي الحكومة وتفتح السّدّ ولو ساعات حتى يوصلنا الماء.

استخرج العم علبة تبغ معدنية من جيبه ولفّ سيجارة بعناية أشعلها بزناده ونفث دخانها. قال بحدة والدخان بتطاير من فمه ومنخريه:

- كان أفضل لشيخنا الاتصال بأخيه النائب في بغداد ليتوسط لدى الزراعة فيفتحوا السّدّ بدلاً من تكليفك بالمهمة الصعبة.

في تلك الليلة سهد عصفور. انشغل مخه بالتفكير في طريقة لسقي عطش 'الخنزيرة' العزيزة على قلب الشيخ، وظلت كلمة سّدّ تتردد بين تلافيف مخه حتى أسفر الصباح ونهض لتنفيذ الفكرة التي واتته مع أول تغريدة عصفور.

راقبته أمه وهو يحمل المسّخِنة النحاسية ويمضي بها نحو شريعة النهر، بدا لها مشغول البال فلم تقل له بان لديهم ماء كافي للشرب والغسل اليوم، وفي هذه الساعة ستكون الشريعة خالية من نساء وفتيات يتهامسن ويكركرن عندما يشاهدنه لأن ملأ المسخنة عمل الأناث لا الذكور. عاد بعد قليل ووضع المسّخنة عند كوسرة الكوخ وانهمك في العمل. حفر بيديه قناة مصغرة ووضع في منتصفها حصاة متوسطة الحجم ثم صب القليل من الماء من طرف القناة فتدفق الماء نحو الحصاة ودار حولها من دون أن يغمرها، جاء بقطعة خشب ووضعها داخل القناة المصغرة خلف الحصاة ودلق كمية صغيرة من الماء فعلا الماء الحصاة، وفرح عصفور بالنتيجة، لكن سرعان ما حلّ القلق مكان الفرح، وقضى ذلك الصباح مفكراً في طريقة لصنع السّدّ الذي سيحصر الماء في النهر بحيث يغمر الخنزيرة فتشتغل المضخة، وضرورة أن يكون سّدّاً مؤقتاً تسهل إزالته بعد انتفاء الحاجة له وصدور قرار من الشيخ بذلك، وأن يكون صنع السّدّ ممكناً بما لديهم من إمكانات متواضعة ومواد محدودة، تذكر صيادي الأسماك المنهمكين في جمع صيدهم عند الضفة الأخرى من النهر ذلك الصباح، كانوا قد مدّوا شباكهم من ضفة إلى أخرى أثناء الليل وقبل شروق الشمس لملموا شباكهم واستخرجوا منها الأسماك. كانت الحصيلة بائسة بسبب شح المياه، رموا سمك الجري المحرّم أكله عند الشيعة إلى الماء فلم يبق لهم سوى القليل . لو مدّ شبكة صيد ووضع خلفها حجارة فسيكون لديهم سّدّاً لكن يصعب إزالته، واخيراً اهتدى عقله للبديل عن الحجارة، في الهور الواقع جنوب أرض الشيخ قصب وبردي وفي خان الشيخ أكوام من القش يكفي لبناء سّدّ وبعد سقي زرعهم يمكن إزالته بالمرادي.

الكلام وحده لن يقنع الشيخ، ليأمر بشراء شبكة صيد متينة أو تكليف أحد صانعي الشبك بإعداد واحدة من خيوط سميكة، لن تقطعها المياه السريعة للنهر، ويأمر فلاحيه بمدها بين الجرفين، ونقل حزم القش من مخزن الحبوب، وطلب النخالة من مجرشة اليهودي في بلدة أم السرجين القريبة، ولن تكون نخالة اليهودي مجانية فهو يبيعها علفاً للحيوانات، وجني البردي من المستنقع لن يكون هيناً، سينفذه الفلاحون المتعودين على حشر الشيوخ مرغمين، والمستنقع بيت الخنازير البرية ومن يقترب منها يخاطر بطعنة من أنيابها، بعد تفكير استغرق صباح ذلك اليوم اهتدى إلى وسيلة لإقناع الشيخ بفكرته.

جلب كمية من الطين الحر ليبني بها نموذجاً مصغراً للنهر، وتوسل صيادين لإعطائه قطعة من الشبك فرفضوا بأدب. ساعده الابن الصغير لصياد ودلّه على مكان عند الشاطئ غير بعيد عن بيته وجد فيه قطعاً صغيرة متروكة من الشبك، خمّن بأن الصيادين يستعملونها لرتق شباكهم لو تعرضت للتمزق، وعرّج على بركة ماء راكد ليقطع منها سيقان البردي، وفي طريق عودته إلى كوخ عائلته شاهدته نسوة يحملن أواني النحاس لملئها من النهر فتضاحكن لرؤيته محملاً بالبردي وقطع الشباك، وعلقت إحداهن بعبارة وقحة حول الحمل الذي سيجلبه لوالدته، ومن عادة نساء قريته السخرية من رجالهن وانتقاص رجولتهم.

صنع من الطين مجرى النهر، وثبت الشبكة بين الضفتين، وكدّس قطع البردي والقصب خلف الشبكة، وحبس أنفاسه وهو يسكب الماء في النموذج المصغر، ولم يتمالك نفسه من اطلاق صرحة فرح لدى رؤيته تجمع الماء أمام الشبكة-السدّ وارتفاع

منسوبه، وسمعته أمه فتركت طشت غسيلها وهرعت مسرعة لتشاهد ابنها واقفاً أمام النموذج المصغر وقد غمره الفرح وابتسامته بعرض نصف وجهه. طفق يشرح لها النموذج الذي سيقدمه للشيخ، لكنها لم تفهم شيئاً، اكتفت بالدعاء له بالتوفيق ورضا الشيخ، وتعوذت بالله في سرها من غضب الشيخ على ابنها ولعبته الطفولية.

جاء عصفور بسفط من القش ووضع عليه النموذج، واصلح جوانبه الطينية التي تهرأت بسبب سكب الماء، وطلب من أمه خرقة ليغطيه بها، متذكراً تهكم النسوة عليه، فهو لم يمتلك الجرأة بعد للسير وسط القرية وحتى مضيف الشيخ حاملاً السفط عليه النموذج المصغر، ولا يستبعد أن تخرج زمرة من أطفال القرية الأشقياء بمسيرة وراءه، صارخين مصفقين استهزاءً به، وقبل شهور شاهدهم يؤدون نفس طقوس الاستغراب والاستهزاء في استقبال مهندس الري الأشقر وزوجته السافرة حتى اضطر أزلام الشيخ للتدخل لتفريقهم.

دخل المضيف، سلم ووضع السفط أمام الشيخ، ولم ينتظر سؤال المحفوظ فرفع الخرقة عن النموذج وحمله خارج السفط إلى مكان قريب من شيخه، وسارع إلى نهاية المضيف حيث يجلس جوهر، العبد سابقاً، خلف موقد نار ودلال بأحجام مختلفة، ليطلب منه بأدب إبريق الماء، حمله وعاد به إلى النموذج، وتابع الشيخ مسيره وقد لجمه الفضول والتعجب. توكل عصفور على الله وصب الماء على النموذج من الجهة البعيدة عن السدّ المصنوع من الشبك وقطع القصب فسرى الماء سريعاً حتى بلغ السدّ ليرتفع منسوبه نحو الضفتين حتى طغى عليهما.

قذف الشيخ المخدة التكأة من حضنه، فارتطمت بابنه شامي الأحول الخبيث الجالس على يمينه، وقفز وافقاً، وقبل أن تسحب يد الشيخ المسدس من جرابه في خصره أغمض والد عصفور عينية لئلا يرى المشهد التالي المتوقع، ولده عصفور وقد اخترقت جسده الضامر رصاصة أو أكثر من سلاح الشيخ وهو يسلم الروح على سجادة المضيف والدماء تنزف منه، خفق قلبه لدى سماع صوت رصاصتين، وفتح عينيه ليرى ولده حياً وليسمع الشيخ يخاطبه:

- بارك الله فيك والبطن التي حملتك والأب الذي رباك. أحسنت يا أبا عصفور.

ثم التفت إلى الحاضرين وبنبرة استعجال:

- يا الا يا ربعنا! نبني سد عصفور قبل أن يموت زرعنا! همتكم أريد رجال تقص القصب وتجمع التبن وأريد من أبي عصفور شراء شبك مشبك قوي من أم السرجين. غداً سنبني السّدّ بإذن الله وهمة الزلم.

أحدثت رصاصتا الشيخ ثقبين في سقف المضيف نفذت منهما أشعة الشمس، فأضاءت هامة الشيخ، فبدا وكأنه قديساً من قديسي المسيحيين، كما يشاهدون في رسومهم وأيقونتهم المقدسة، لكن في الصيف اللاهب لا تراد قداسة من هذا النوع، وسرعان ما سينزعج الشيخ منهما فيستدعي مشيد المضائف لسدهما.

انهمك الفلاحون ذلك اليوم في إعداد ما يحتاجه السّدّ الشبكي. كان والد عصفور متهيئاً للتوجه إلى أم السرجين لشراء الشبك وفي

جيب ثوبه تفويض خطي من الشيخ للشراء بأي سعر عنما تذكر الشبك الذي يحيطون به محلة جمع المحصول اثناء درسه من قبل الدواسين ومطاياهم ثم تقسيمه بين الشيخ والفلاحين، فذهب إلى المضيف ليخبر الشيخ بعدم الحاجة لشراء شبك جديد، فوافقه الشيخ واستدعى وكيله الزراعي ليجلب الشبك ويعده لوضعه في النهر.

تمنى الشيخ يومها التعجيل بوضع السّدّ في النهر أمام الخنزيرة لكنه قرر تأجيله إلى اليوم التالي، ولو أمر فلاحيه بالعمل في النهر ليلاً لما ترددوا لكنه تحسب لحدوث أخطاء وتفلت السّدّ في الظلام، وأرسل أعوانه لإبلاغ كافة فلاحيه بأن فجر الغد هو موعد حشر ولا عذر لمن يتخلف إلا الموت.

في تلك الليلة سهد اثنان في كوخ أبي عصفور، رب البيت وأم عصفور واستغرق عصفور في النوم ولم يفيق حتى الفجر، صلى الثلاثة، وبعد استكاني شاي وتقاسم رغيف حار من تنورهم وقطعة زبد طازجة من مخاض حليب بقرتهم محلاة بالسكر غادر عصفور وأبوه إلى المضيف.

تقاطر فلاحو الشيخ، استأثر كبار السن بالمضيف واحتساء فناجين القهوة، وتجمهر الشباب حول المضيف، تركوا عباءاتهم الصيفية الخفيفة وأثوابهم النظيفة في أكواخهم، ولم يتغيب أحد. ما آن اكتمل العدد حتى خرج الشيخ من قصره، بيت متواضع من طابق واحد، يحتوي على غرفة رحبة صفت على جوانبها أرائك عصرية مخصصة لضيوف الشيخ من أمثاله وموظفي الحكومة، وفي الخلف غرف نوم ومعيشة بعدد زوجات الشيخ ومطبخ كبير ومخزن مؤونة واسطبل لخيوله الأصيلة، سموه قصراً لأنه منزل شيخهم ولكونه مشيد بالآجر لا مثل أكواخهم الطينية، خرج الشيخ بمعية أخيه غير الشقيق الأملس

وسار وراءهما أبناءهم وكبار السن من العوائل الأصيلة في القبيلة، عند دكة المضيف رفع الشيخ بندقيته البرنو المفضضة، وثور طلقتين تردد صداهما بعيداً. ثم أشار الشيخ بوكيله الزراعي لتبدأ العملية.

بالأمس وقبل انفضاض مجلس الشيخ، تغلب القلق من الفشل على كبرياء وكيل الشيخ الزراعي فسأل عصفور عن تفاصيل عملية وضع السّدّ الشبكي في النهر، وكان عصفور قد فكر ملياً وأعد جواباً كافياً، ردده الوكيل مع نفسه حتى حفظه عن ظهر قلب.

باشروا بقطع سيقان البردي من الهور القريب، قبل الضحى امتلأت الأرض البور خلف المضيف بحزم القصب والبردي، جمعها فلاحون على عجل من الهور القريب، وكان خوفهم من غضب الشيخ أشد من رعبهم من الخنازير المتوحشة الكامنة داخل غابة القصب المائية، وساعد وجود حراس الشيخ على طمأنتهم بعض الشيء. تولى اليافعون شدها في حزم ليسهل نقلها مكان التجميع بالقرب من مضخة الماء المعطلة، بعدها ستحملها القوارب الكبيرة، وتنتشر بين ضفتي النهر، بالتزامن مع مدّ الشبكة الضخمة.

وعدهم الشيخ بمكافأة:

- غداؤكم اليوم عندي في المضيف سمك ولحم وطوابق تمن!

هلل الفلاحون فرحين، وخاصة أولئك الذين لا يذوقون لحم الضأن إلا في مضيف الشيخ في الأعياد وعزاء الإمام الحسين وانبرى شاعرهم بأهزوجة، تمجد شيخهم الذي سّدّ الشط.

وقف وكيل الشيخ وبجانبه عصفور يراقبان عمل الفلاحين والملاحين، بين الحين والآخر يهمس عصفور في أذن الوكيل فيصدر

أوامره بأعلى صوته فيتناقلها الأقربون للأبعدين. انتظمت القوارب الكبيرة (الأبلام) التي استأجرها الشيخ لنقل حزم القصب والتبن والقش بين الضفتين، مستعينين بالمرادي الطويلة في منعها من الانجراف مع تيار الماء، وساعدهم التدفق البطيء لماء النهر الشحيح، ثم أصدر الوكيل الأمر بإنزال حمولتهم من التبن أولاً ثم القصب والقش حتى فرغت القوارب، وبإشارة من الوكيل بدأ نشر الشبكة وتولى غطاسون ربطها بسيقان القصب من الأسفل فاستقامت.

حبس جبر أنفاسه وهو يتابع المرحلة الأخيرة من بناء السّدّ، ونذر خروفاً لأبي خربة لو ارتفع الماء ليغطي الخنزيرة وتشتغل المضخة.

ارتفع منسوب الماء حتى بلغ أعلى الخنزيرة، فهلل الفلاحون والملاحون، وثور الشيخ طلقتين ابتهاجاً. ما ان سمع العم الضجة وصوت الرصاص حتى ضغط على زر تشغيل المضخة، تحركت برهة ثم همدت، أوشك جبر أن ينذر خروفاً ثانياً لكن سبقه أخوه بمحاولة ثانية، كانت ناجحة، ارتفع صوت المضخة وتدفق الماء من انبوبها الممتد نحو الساقية، فسارع زمرة من أبناء الفلاحين القريبين لغسل أيديهم ووجوههم بمائها العكر.

غادر الفلاحون ضفة النهر، وعادت القوارب إلى مراسها، ولم يبقى سوى اثنان لمراقبة السّدّ خشية انفراطه. أعلن وكيل الشيخ:

- الغداء في المضيف بعد السقي.

انطلق الفلاحون إلى زرعهم لفتح قنوات المياه الخاصة بها، وفي ذلك اليوم لم ينشب جدال حول أولوية السقي، ولم يتعد أي منهم على حقوق غيره في أرواء محصوله، وكان عصفور أحدهم ذلك اليوم

ومحط حسدهم، وقبل الظهيرة أرتوى زرع الشيخ من مياه النهر التي لولا حنكة عصفور لذبلت وماتت.

تقاطر الفلاحون على المضيف، وجد كبار السن مواضع لهم داخله، واكتظت دكة المضيف المرتفعة بالشباب والصغار. أجلس الشيخ وكيله على يمينه وجبر على يساره، أما عصفور فقد وجد مكانه بين الشباب. نظروا إليه بمزيج من الحسد والإعجاب، وكان حسدهم أقوى من إعجابهم، لكنهم كتموا ذلك داخل نفوسهم، سوى أحد الجالسين أمامه خاطبه بخبث:

- البركة بمجلات عمك ها عصفور؟

فاجأ عصفور السؤال:

- ما قصدك جلاب؟
- لا بد أنك تعلمت منها الشيء الكثير.
- تقصد فكرة السّدّ؟
- يمكن. الله أعلم
- لا أخي. مجلات عمي إنكليزية وهم لا يحتاجون لسد أنهارهم بالشبك.

  انبرى أحد هم للرد على جلاب:
- بطّل جلاب! خلينا نأكل ونحمد الله. لولا عصفور ما شبعنا لحم اليوم.

همهم آخرون وهزوا رؤوسهم موافقين، فسكت جلاب مرغماً.

**

كانت سنة طيبة للزرع، لم تأت الرياح بما لا يشتهي الأرز، ولم تعصف الأنواء وتمطر الدنيا فيذهب جهد جبر وابنه عصفور وبقية الفلاحين أدراج الرياح، وطربت أسماع عصفور لهدير مضخة الماء كلما حل موعد سقي، حتى بدأ نضج شتلات الأرز، كانت سنابل حقل جبر الأكثر والأكبر في أرض الشيخ وأخوته، وشوهد فلاحون من مناطق قريبة وبعيدة يمرون على حقله، ويبدون التعجب والاعجاب من غزارة زرعه وجودته، ودفع الفضول بعضهم لطرق كوخه، ليسألوه النصائح، فنادى على عصفور ليشرح لهم، وبلعوا كبريائهم ليستمعوا إليه وينصتوا، وغادروا وهم يثنون على فطنته وذكائه داعين له بالتوفيق.

فاحت رائحة سنابل الأرز العنبر، تعبق الهواء من على بعد، وتدخل البهجة في نفوس الفلاحين، تمنى عصفور لو أمكن صنع عطر من سنابلها، أذكى من العطور الرخيصة التي يبيعها رجل حضري، يمر على القرى مرات في العام، يحمل بضاعته على حمار هرم متعب، أقمشة ملونة وصوابين وعطور ونعل جلدية، لا يقبل مقايضتها بمحاصيل أو تمور.

تحرك دافع التجربة والتعلم في نفس عصفور، قطف سنبلة واحدة من حقل والده، بعد استئذانه وموافقة الشيخ، عن الحلال والحرام كما تردد والدته، لم تفقد عطرها عندما فصل حبها عن السنبلة ووضع القليل منه في قنينة وغمرها بالماء، ثم دسها في التراب في باحة بيتهم، وانتظر أياماً، ثم استخرجها، تبددت الرائحة الزكية، لكنه لم ييأس. جاء بجرن والدته وهرس حبوب أرز جديدة، ثم وضعها في القنينة المليئة بماء مغلي، ودفنها في التراب

الحار، بعد أسبوع كانت النتيجة مخيبة لأمله، فصرف اهتمامه إلى مهمة جديدة.

نضجت عذوق نخيل بساتين الشيخ، خلت النخلات المفضلة من الرطب، قطفوه وباعوه في السوق، وانتهى الخضراوي وأصابع العروس والحمراوي في أسواق العاصمة، ولم يتبق سوى الزهدي والأقل ثمناً من التمور. تهيأ قصاصو التمر لبدأ موسم جني الثمار، أخرجوا مناجلهم المسنونة وفحصوا مرة وأخرى عتلة الصعود ومتانة أسلاكها، ورددوا الشهادات الثلاثة للّه وللرسول وللوصي علي بن أبي طالب. سبقهم عصفور إلى اختراع وسيلة لقطف التمور، قطع قصبتين طوال من المستنقع، وربطهما سوية، وسنّ منجل قديم لوالده وثبته برأس القصبتين المدمجتين، وبعد استئذان والده اختبر الوسيلة المبتكرة في قص عذوق النخلة المتوسطة باحة البيت، ثمارها زهدي، يستطيب عصفور مذاق رطبها، والمجفف منه أو الجشب يدّخرونه معونة للشتاء، درءاً للجوع ومنعة من الاستجداء، ويدعون بأنه مقوي لقوة الرجل في الباه. وضع السماط تحت العذق وبدأ بالنشر. بعد حوالي نصف ساعة انتهى من قص أعذاق النخلة. سيسلمون الشيخ حصته من ثمارها في الغد، ويحتفظون بالباقي في أكياس من القنب.

وجدوا باب مخزن تمور الشيخ موصداً، ورفض الحارس فتحه إلا بأمر الشيخ. ترك جبر وعصفور حصة الشيخ من التمور عند الحارس وغادروا. توجه جبر إلى المضيف وعاد عصفور إلى البيت.

لم يقطع الشيخ همسه مع وكيله لرد سلام جبر، وحدث جبر نفسه بأنه لم يسمعه، لكنه عرف بأنه تعمّد ذلك عنما شاهد

النظرة الغاضبة التي رمقها به الشيخ. أشار إليه الشيخ المتجهم بالجلوس أمامه لا بجانبه وخاطبه بحدة حتى قبل أن يستقر على الحصيرة:

- سمعنا ابنك عصفور يريد الزواج. مبروك مقدماً!

دهش جبر من كلام الشيخ واحتار في الرد عليه بسرعة فأضاف الشيخ:

- ها! يعني ما سمعته صحيح يا جبر؟
- محفوظ! أنا لا أدري ما أقول! عصفور...

قاطعه الشيخ محتداً وبصوت كحسيس الأفاعي:

- قالوا ابنك طمعان بالزواج من ابنتي

لجمت الدهشة لسان جبر فتلعثم:

- غير معقول غير معقول! ابني عصفور عاقل وانت أبونا كلنا وتعرفه. هذا كذب.

نظر الشيخ جانباً تجاه ابنه الأحول الخبيث شامي فخمن جبر بأنه مصدر الخبر الملفق. بعد سنين سيحاول شامي إغراق أبيه فينقذه عصفور.

- الآن! أجره من شعر رأسه ويحلف لك بالعباس أبي رأس الحار بأن هذا الكلام كذب. ابني مظلوم.

لم يقتنع الشيخ الغاضب. رفع اصبعه المكتنز بوجه جبر:

- شوف! لا يحلف لي ولا أصدقه! عندكم واحدة من اثنتين، أما ترحلون كلكم من ديرتنا حتى أخوك سائق المضخة أو يرحل

ابنك رواح بلا رجعة. وعندكم مهلة حتى الغد. إذا لم يغادر ابنك فسأطرد الكل وأحرق أكواخكم.

- أمرك محفوظ!
- قام جبر وسلم فلم يرد أحد على سلامه.

**

ناحت ولطمت فخذها أم عصفور عند سماع إنذار الشيخ من زوجها، وكادت ترفع الصوت لولا وضع جبر يده على فمها.

- اسكتِ! لا تفضحينا وسط الجماعة.

بعد رفع يده عن فمها الأدرد خاطبته بصوت باكي:

- ما العمل والتدبير يا أبا عصفور؟
- التدبير من رب العالمين. أهون الشرين يترك عصفور الديرة.
- أين يذهب؟ وبعده شاب صغير السن.
- عصفور رجل خطت شواربه ويدبر نفسه.
- لو تتوسل للشيخ وتوسط الأجاويد يمكن يغير رأيه.
- الشيخ صمصم. سمعني كلام ثقيل. أزيدك علم: قلت له أجر عصفور من شعره ليحلف لك بالعباس فرفض.

بنبرة وتعابير ساخرة وصفت أم عصفور ابنة الشيخ الكبرى:

- لو عصفور بنصف عقل ما يتزوج ابنة الشيخ! شليلة وجها ذابل وأصفر من دود بطنها وشعرها واقف مثل الشوك طعام الجمال، ورفيعة كأنها قصبة، وفوق هذا كله لسانها طويل ونجس مثل أمها.
- الله يكفينا من شرهم.

- الله يسمع منك.

قبل الظهر عاد عصفور من زيارة عمه في كوخه قرب المضخة، انتظر جبر حتى انتهاءه من تناول غداءه البسيط، مرق وقطعة لحم بالعظم ورغيف خبز من تنورهم. استمع عصفور لوالده بهدوء ومن دون انفعال، وأبلغه بأنه سيغادر بيتهم بعد صلاة الصبح ويتوجه إلى بلدة أم السرجين ليبحث عن عمل ومسكن. انهمرت دموع الأم وهي تردد:

- من الباب للكسرة فرج.

سهدت أم عصفور ونفذت سجائر المزبن من علبة والده المعدنية قبل أن يغالبه النعاس، وأفاق قبل الفجر. ووجد عصفور جالساً بالقرب من والدته وفي حضنه لفة قماش حوت ملابسه القليلة. رفض عصفور دينار والده وطمأنه بأن لديه نقود كافية لقضاء حوائجه في الأيام المقبلة وبعون الله سيعمل ويكد، وأضاف عند باب كوخهم:

- لا تهتمي يا أمي! فراقكم صعب ولكن أم السرجين قريبة وإن شاء الله أشوفكم عن قريب.

قبل يدا أبويه وخرج من الباب. سارت والدته خلفه حتى كسرة البيت ودلقت أبريقاً من الماء خلفه وهي تتمتم:

- يا من رد يوسف ليعقوب.

مر على عمه ليودعه ثم انطلق باتجاه بلدة أم السرجين متأبطاً لفة ملابسه. تابعه أحد حراس الشيخ حتى خروجه من الديرة، ليتأكد من مغادرته الديرة تنفيذاً لأمر الشيخ.

سار عصفور بمحاذاة النهر، متجنباً المرور داخل قرى الفلاحين الصغيرة. يسمح الشيوخ ببناء الفلاحين أكواخهم قرب النهر، حيث تكون الأرض الصدور كما يسمونها مرتفعة نسبياً، فلا تزرع لأن سقيها صعب ومكلف. نبحته كلابهم من بعيد، لا يخيفه نباجهم والشرسة منهم تربط بالسلاسل في النهار ويطلق سراحها في الليل لتحرسهم، دفع الفضول ببعض زوجات الفلاحين للخروج من أكواخهم لمراقبته، وزجرن أولادهن لئلا يقتربون من الغريب المار.

كل الجماعات التي مر بها تعود لأقارب الشيخ، أخوته وأولاد عمه. كانت مضخات الماء لتلك الأراضي واقفة بسبب شح مياه النهر، وسائقوها غائبون سوى واحدة. هي الأخرى صامتة لكن سائقها حاضر. سلم عليه فرد السلام ودعاه لشرب الشاي فقبل. اشتكى السائق من الإرهاق. منذ يومين وهو يحاول اصلاح الكاروبة (المحراث الآلي). هدده شيخه بالطرد لو لم يصلحها خلال أسبوع ورفض ارسالها للنجف. تحمس عصفور فسأله:

- تسمح لي بمساعدتك؟

أجابه السائق:

- هل أنت مشغل أم مُصلِح؟

ضحك عصفور:

- لا هذا ولا ذاك، لكني تعلمت من عمي مشغل مضخة الشيخ وبتوفيق الله اصلحتها عندما توقفت.
- ما اسمك عمي؟
- عصفور ابن جبر.

ابتسم الرجل لدى سماعه الاسم:

- أنت عصفور أبو السّدّ.
- بنيت سد الشيخ. والآن صار اسمي أبو السّدّ عجيبة!
- تستحق هذا الاسم ولولا السّدّ لمات زرع شيخك. الظاهر أنت ذاهب لزيارة مرقد الوصي أو لشغل في أم السرجين؟
- لا! يا ليت اقدر أزور الوصي وأدعو لك..

وبعد تلكؤ قصير أردف:

- الشيخ طردني بسبب وشاية قالوا له عصفور يريد يتزوج من ابنتك. الله يجازي الواشي. ما لي وابنة الشيخ أنا الفقير ابن الفلاح.

مصمص الرجل شفتيه متعجباً:

- وصدق الشيخ هذا الكلام!
- قال لوالدي أما يترك عصفور الديرة أو أهججكم كلكم.
- هذا شيخكم عقله صغير.
- الله يسامحه.
- الله لا يسامحه.

قال الرجل معترضاً وبنبرة سخط أضاف:

- شيخنا ابن عم شيخكم طلب منه مساعدتك في وضع سد جنب مضخته فرفض. قال له مشغول وما عنده وقت.
- انساهم وخلينا نحاول تصليح المحراث.
- لكن المحراث لا يشبه مضخة الماء بالتمام.

أنصت عصفور لشرح قصير عن المحراث قبل أن يبدأ بتفكيك المحرك. انتصف النهار وألهبت أشعة الشمس المتسلّلة من بين جريد النخل رأس عصفور، وكل محاولاته باءت بالفشل، لكنه لم ييأس بعد. توقف هنيهة ليشرب الماء من كأس فخار. تذكر نصيحة قرأها في إحدى مجلات عمه: أحياناً تغيب عن اهتمامك سبب المشكلة لأنها وإن كانت ظاهرة أمامك لكنها بسيطة لذلك تهملها.

- عمي! أخاف ينقصه ديزل!

جاء رده متأخراً بعد عدة لحظات من التفكر:

- يجوز! يجوز! العداد معطل وما قدرت على تصليحه.
- بسيطة نجيب عود طويل ونشوف إن كان خزان الديزل فارغ أم لا؟

جاء المشغل بجريدة نخل صغيرة وأدخلها في الخزان فخرجت ناشفة.

- عندك حق عميّ الخزان فارغ تماماً.

بعد ملأ الخزان بالديزل صعد عصفور إلى قمرة المحراث وأدار مفتاح الماكنة فدوت بالضوضاء..

- بارك الله فيك يا عصفور! لولا فطنتك لطردني الشيخ الظالم.

أصر عصفور على اصلاح عداد الوقود. تبين بأن السلك الموصل بين الخزان والعداد مهترئ فأعاد ربطه وتثبيته فانتظم عمل العداد.

رفض عصفور استلام درهمين أجرة عمله، وودع المشغل الذي رافقه حتى منعطف الطريق معتذراً بعدم قيامه بالواجب ودعوته للغداء في كوخه.

عندما لاحت لعصفور مشارف بلدة أم السرجين تقف ليرتاح ويتناول الطعام الذي زودته به والدته. وجد في الصرّة أربع أرغفة خبز باللحم، عادة ما تخبزها والدته نذراً للإمام العباس بن علي. تكفيه يومين وان اقتصد أربعة أيام، وبعدها سيجوع إن لم يجد عملاً يسترزق منه. راقبه كلب صغير من قرب، برزت عظام صدره من الجوع، حنّ قلبه عليه، قبل أن يمضي نحو أم السرجين ترك كسرة خبز قرب مكانه، واطمئن لدى رؤيته التهام الكلب الجائع للخبز.

أول ما صادفه نجار عجوز، منهمك في إعداد سرير من جريد النخل، وقف يراقبه وهو يثقب جريدة ليدخل طرف أخرى فيها. انتبه الرجل لعصفور الفضولي. حياه برفع يده وابتسامة كشفت عن فم أدرد وتجاعيد وجهه.

سلم عصفور ونزل نحو النجار الذي اتخذ من جرف النهر مكاناً لعمله.

- الله يساعدك عمي!
- الله يسلمك يا عمي. من أي جماعة طيبة؟

حتى في البلدة أول ما يسألون عن الجماعة.

- من جماعة أبي خربة.
- والنعم
- الله ينعم عليك!
- يظهر أنك ما زرت أم السرجين من قبل.
- كيف عرفت؟

تبسم النجار وتوقف عن طرق الجريدة بالساطور:

- لأنك وقفت تتفرج علي. المتعود على رؤيتي يمر حتى من دون سلام.

تحرك فضول عصفور ورغبته في معرفة كل شيء عن أم السرجين التي وجد نفسه مضطراً للعيش والارتزاق فيها.

- لكن غريب أنك تعمل على جرف النهر ألا تخاف من دهدهة جريداتك إلى الماء أو هذا السرير الذي تعمل عليه الآن.

عندب نجار الجريد حتى خشي عصفور أن يكون قد أساء الأدب بسؤاله.

- عندك حق لكن ما باليد حيلة. كنت أعمل هناك على الرصيف أمام ذلك البيت لكن صاحب البيت اشتكى عند البلدية فأجبروني على الانتقال إلى هنا.
- ومن هو صاحب هذا البيت القريب من الشط؟ أظنه شيخ عشيرة.
- أي شيخ عشيرة عمي هذا أقوى وأغنى! هذا حسقيل اليهودي.
- سبحان الله!
- لا تتعجب ابني! عساك تظن أن شيوخك يملكون أم السرجين! هذا البيت والبيت اللصيق وفي الصوب الأخر من الشط...

ومشيراً إلى مبنى ضخم وأكمل:

- مطحنة ومجرشة وخان التمر وكل الصف من البساتين لليهود، حتى العرق يعملوه ويبيعوه. يمكن أنت ما تسمع بالعرق. هذا خمر قوي حرمه القرآن الكريم.
- يا داحي باب خيبر.

- نريد داحي باب آخر يخلصنا، والله طلعت أرواحنا من قبل أن نشوف عزرائيل! من رخصتك أكمل شغلي قبل ما يتقاطرون على الجرف.
- من هم؟

تبددت سحابة الغضب من على وجه النجار وضحك:

- تكرم هذا الجرف من هذاك الجسر حتى البساتين عند أول الطريق يقضون حاجتهم عليه.
- الله يساعدك عمي بين حسقيل وهؤلاء!
- تسلم يا ابني الله يوفقك.

سلم عصفور ومشى نحو المدينة، مر ببيت حسقيل ومبنى المحكمة المستأجر منه، وقبل السوق المسقوف توقف عند علوة لبيع الأرز، لاحظ كومة من الأرز في زاوية من مدخل العلوة، تسرب من فتق صغير في كيس أرز متخم. طلب من رجل ضخم متربع على كرسي وراء منضدة مخيط وخيط جوت، فلبى طلبه. قرفص عصفور بجانب الكيس وبدأ برتق الفتق بعناية. تعلم ذلك بمشاهدة أعوان وكيل الشيخ المكلفين بنقل وخزن غلة أرضه من الأرز. بعد قليل قام الرجل الضخم من وراء مكتبه ووقف عند مكان عصفور وسأله:

- ماذا تفعل؟

رفع عصفور رأسه وابتسم للرجل:

- أخيط هذا الثقب في الكيس لئلا يضيع الحب!
- تتوقع أعطيك أجرة على عملك؟
- لا! لو أردت أجرة لطلبتها قبل العمل.

- مر أناس كثر ولم يكلف أحد نفسه حتى بتنبيهي لذلك لكن أنت أخذت خيط ومخيط وخيطت الزرف!
- يمكن بالهم مشغول وما عاينوا. أنا لا أتحمل رؤية غلط وأسكت عليه.
- بارك الله فيك. ما أسمك عمي؟
- عصفور من جماعة أبي خربة.
- أنا أسمع عن عصفور من أبي خربة. يسمونه عصفور أبو السّدّ.

ابتسم عصفور:

- اليوم عرفت بأن لي اسم جديد عصفور أبو السّدّ.
- هذا اسم حلو ومنطبق عليك. ليش أنت السّدّ الذي بنيته قليل!
- الفضل لله أولاً وآخراً.
- ونعم بالله، لكنك اجتهدت ونجحت. أكيد شيخك أعطاك صرّة فلوس.

ضم يديه تجسيماً لصرة.

- ماذا أقول يا عمي. أعطاني وأخذ.

رفع التاجر حاجباه الكثين فجحظت عيناه.

- عجيب! كيف أعطى وأخذ.

نكس عصفور رأسه نحو أرض العلوة المبلطة وراح يتفحصها كأنه يبحث عن شيء ضائع:

- أعطى والدي فلوس وشِقّة أرض أحسن وأخذ مني كل شيء.

توقف صاحب العلوة عن مداعبة سبحة اليسر ليسأل عصفور بكلمتين خرجتا من فمه مع ذرات من لعابه أصابت عصفور فلم يجرأ على مسحها.

- شلون ! شلون!
- طردني من الديرة. تجنوا علي وقالوا طمع يتزوج من بنت الشيخ صدقهم وطردني.

هز صاحب العلوة رأسه مستنكراً:

- لا! هذا ظلم. كيف يعيش إنسان من دون عشيرة، كان لازم يحط عقله برأسه ويتأكد حتى لا يظلمك... لا حول ولا قوة إلا بالله.

استمر صاحب العلوة بهز رأسه استنكاراً وتعجباً وأضاف:

- عمي لا تزعل. الله هو الحافظ، ورزقك عليه لا على أحد غيره. وأي شيء تحتاج تعال واسأل ولا تخجل، من اليوم اعتبرك مثل ابني، وسأخبر شيوخ العشائر بأن عصفور أبو السّدّ صار من أهل أم السرجين ومن يريد بناء سّدّ فليأت ويخبرني.
- أشكرك عمي، والله يبارك في رزقك.
- عمي! أنت غريب بالبلدة وإذا ما لقيت مكان تبيت فيه. تعال لتنام في العلوة، وأنا موجود هنا حتى صلاة المغرب والعشاء.

انتهى عصفور من رتق كيس الأرز. سلم المخيط لصاحب العلوة وترخص منه وغادر.

تجول في السوق المسقوف. تفرج على الدكاكين المنتشرة على جانبي السوق، جلس أصحابها عند مداخلها، يتفحصون وجوه المارة، لم تتوقف نظراتهم عنده، نظرة عابرة على وجهه الذابل من سوء

التغذية وملابسه الموشكة على الاهتراء كافية لمعرفة خلاء جيبه من نقود لشراء بضاعتهم، تغير لون ثوبه نتيجة تكرار الغسل، وبهت الأسود في شماغه الذي لبسه والده سنين قبل تحوله إلى رأس عصفور ومن دون عقال، وذؤبات شعره المجزوزة بسكين حاد لا مقص حلاق، ونعاله المخصوف، كلها وشت لهم بأنه فلاح وابن فلاح فقير.

تمنى لو كان له دكان يبيع فيه العباءات أو الأثواب أو أواني النحاس، سيكلف ذلك العشرات من الدنانير أو حتى أكثر، وكل ما يملكه عشرة دنانير حصته من مكافأة الشيخ على السّدّ التي اقتسمها والده معه، وجمع مبلغ لشراء محل أو علوة سيتطلب بناء المزيد من السّدّود لشيوخ أسخياء، سيعطي أباه ووالدته منها ويدّخر الباقي لشراء مصلحة يرتزق منها.

أحس بالضيق في السوق المعتم، يقضي أصحاب الدكاكين وعمالهم طيلة النهار بلا شمس ولا زرقة السماء، سوى نقاط مضيئة في ثقوب السقف الصفيحي. لم يتعود فلاح مثله على ذلك، ويفضل مكاناً للعمل خارج هذا السوق الأشبه بصندوق والدته المهدى لها في يوم عرسها.

أسرع خطاه إلى الشارع العام، نظر طويلاً إلى السماء والنهر قبل أن يكمل سيره. انعطف يساراً ليدخل شارع السوق الرئيسي، مرّ بجانب السور العالي لمبنى تعلوه راية وتقف أمامه سيارة تحمل بندقية كبيرة لم يشاهد مثلها لدى حراس الشيخ. استوقف أحد المارة ليسأله عن المبنى فأجابه بأنه السراي الحكومي وداخله يوجد حاكم المنطقة والشرطة والراية هي علم الدولة، فحمده وأكمل سيره بين الدكاكين، عند أول الشارع دوى صراخ طفل جالس على كرسي عال

يعمل مقص مزين في قص شعره وتحسس عصفور شعره الذي طال حتى تسرب من تحت شماغه. جلس قصاب تحت أشلاء اللحم المغطاة بالذباب، وخياط يرتق عباءة سوداء سميكة شتوية عند مدخل دكانته الصغيرة، وتفحص الخضار والفواكه المرصوصة على سفط خشبية أمام محلات الخضار، اشتهى بعضها الذي لم يشاهده من قبل، وعند نهاية السوق حسينية بابها موصد، تعلوه قماشة سوداء كتبت عليها يا مهدي أدركنا.

عاد أدراجه نحو النهر، وبعد تردد قصير توجه نحو الجسر الخشبي، تهيب من العبور عليه، كلما مرت سيارة اهتز وتمايل، بعد التوكل قلد عابر قبله، أمسك بالحبل الغليظ الممتد بين الضفتين، وسار على مهل، تضطرب العوامات المعدنية تحت الجسر فيتحرك الجسر معها، خشي من فقدان توازنه ففكر بالعودة إلى الضفة، لكن عابر آخر وقف في طريقه، فاستمر على مضض، ولم يتوقف شعوره بالغثيان حتى بلغ الحافة الأخرى من الجسر، منها انطلق نحو الشمال، العمار في تلك الجهة قليل، لا يميزه سوى مستشفى صغير ومبنى غير مرتفع كتبت على واجهته نادي الموظفين، سيتبين له فيما بعد بأنه محل لشرب وبيع الخمور، تمتلكه حكومة البلاد ويديره رجل مسيحي، يقصده الموظفون والشيوخ والوجهاء تحت ستر الظلام ومن يخرج سكراناً يتصدى له فتيان أشقياء يتهجمون عليه مرددين "سكران بالك منه فلوس العرق مو منه"، ولو تمكنوا منه يسرقون محفظته وساعته وخاتمه ويتركونه ملقى على قارعة الطريق. في الطرف الجنوبي من الصوب الصغير كما يسمونه مدرسة ابتدائية يرتفع منها صوت معلم قراءة ويردد وراءه صبيان بأصوات رفيعة.

مضى في الشارع العريض، على جوانبه منازل تخفيها أسوار عالية وأشجار مثمرة. في آخره محطة بنزين وكاز وموقف باصات الخشب التي تحمل الركاب من أم السرجين إلى النجف، ووعد نفسه بركوبها في أقرب فرصة لزيارة الوصي وقبور أجداده المدفونين في مقبرتها.

عبر الجسر المتأرجح مرة أخرى، لم يشعر بالغثيان هذه المرة، وسيكرر التجربة حتى يتعود على ذلك، كان حكمه على مصمم الجسر قاسياً، لو انفصلت واحدة من أجزاء الجسر أثناء مرور حافة خشبية مكتظة بالركاب داخلها وفوقها فسيغرقون بالعشرات، قنطرته أسلم وآمن لكنه لا تنفع مع نهر عريض. سيفكر بالأمر ولعله يجد بديلاً أفضل من هذه المرجوحة، سيتبين له بعد حسين بأن الجسر مدّه جيش الإنجليز لا حباً بسكان بلده المحتل بل لمرور قوات الاحتلال وتركوه لأنه لا قيمة له.

جلس في مقهى السوق، طلب الشاي وشربه مع قطعة من خبز اللحم، ثم توجه إلى علوة عواد، وجدها مقفلة، جلس على الدكة أمام العلوة، لم يأت أحد ليفتح له باب العلوة، افترش الدكة لينام، أفاق على أنفاس حارة تلفح وجهه، فوجد كلباً يتشممه، طرده وحاول العودة إلى النوم، بعد غفوة قصيرة أفاق على وخز حاد في خاصرته، فتح عينيه فلم يجد كلباً بل شرطياً يرفسه في كليته. نهض ليعاتبه ففاجأه بصفعة أوقعته أرضاً. صرخ الشرطي المتجهم:

- قم! قم! يا حيوان. نائم بالشارع، مثل الكلاب.

كرّر الركل وبصق عليه فوقع بصاقه على شماغه الذي لف به رأسه. كان الفجر قد حلّ. لم يصفع عصفور أحد من قبل غير والده، وما تجرأ أحد على إهانته، وعلى أقل من هذا يقتل الجاني.

اشتعل الغضب في نفسه فصمم على تأديب الشرطي وليكن ما يكن. لم يتوقع الشرطي المتعجرف ردة فعل عصفور، لو كان عصفور في ديرة قبيلته لربما تردد في إهانته، لكن في بلدة أم السرجين لا يردعه سوى رؤساؤه والرشوة، أمسك عصفور بخناقه وأخرج خنجره من طيات ثوبه، فبان الهلع على وجه الشرطي، وتجمّد لسانه من الرعب وانتظار مصير مبهم، ولم يسعفه بترديد الشهادات الثلاثة. قبل أن يضع عصفور خنجره على رقبة الشرطي الهزيلة ويقطعها أمسكت قبضة قوية بيده، فالتفت ليشاهد عواد صاحب العلوة.

- اهدأ! صلي على محمد وآل محمد!

دفع عواد الشرطي بعيداً. بلع الشرطي ريقه فنطق لسانه متعثراً:

- عمي عواد! هذا حرامي! نائم على باب العلوة. ردت أدبه فأراد قتلي. تهجم علي وسحب خنجره. أنا رائح للمخفر لأجلب بقية الشرطة للقبض عليه.
- جلاب! جلاب! وين عقلك؟ هذا ابن عشيرة، وأنت أهنته! لو يدرون يلحقونك ولو شردت لديرة الأكراد. أنا قلت له ينام عندي بالعلوة. خذ هذي ولا تحكي لأحد بالموضوع.

دس بيد الشرطي جلاب قطعة نقود معدنية، سقط عليها ضوء الشارع اليتيم فلمعت. ريال فضي بمئتين فلس ثمن سكوت جلاب.

رمق جلاب عصفور بنظرة توعد ووضع الريال في جيبه. حيا عواد برفع يده وانصرف.

تمالك عصفور جأشه، فأسرع لمساعدة عواد في فتح غلق العلوة.

نادى عواد على صبي مار، طلب منه أربعة سياخ من الكباب، ونقده درهمين. عاد الصبي بعد قليل حاملاً صينية رصت عليها أرغفة خبز

لفت داخلها سياخ الكباب وعيدان الكرفس والمخلل. قسم عواد الطعام بينهما، وجلسا يأكلان في صمت.

بعد انتهاء عواد من تناول غداءه فتح درج مكتبه واستخرج دفتراً كبيراً اهترأت أطرافه وناوله لعصفور طالباً منه مراجعة المبالغ والكميات المدونة فيه للتأكد من صحتها. قضى عصفور بقية النهار وبعد مغادرة عواد واغلاق المكتب أكمل تدقيق محتويات دفتر عواد، وملأ ورقة بنتائج الفحص.

في الصباح وقبل حضور عواد راجع عصفور الورقة، احتار في مصارحة عواد، الأخطاء كثيرة في حساباته، والخسائر متكررة، وتخوف من استياء عواد من اكتشافه للأخطاء والخسائر. قرر مصارحته وليكن ما ليكن. استمع عواد لعصفور حتى أكمل. ضرب المنضدة بقبضته وتنهد وهز رأسه.

- ما العمل الآن؟
- عمي انت اشتريت خمسين كيساً الشهر الماضي وفي المخزن باقي عشرة، فالمفروض تكون بعت 40 لكن الدفتر يسجل فلوس 32 يعني ناقصة ثمانية. أين راحت؟
- باقوها الحرامية!
- أي حرامية؟
- عمال الحمل والسواق! من غيرهم؟ غافلوني وسرقوا رزقي! لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. هذا ظلم لكن لازم أعرف من هم الحرامية وأطلع رزقي من عيونهم.
- إنشا الله عمي، ما يصير إلا الخير.
- هذي ورقتك ما تبين الحرامية؟
- شوف عمي! أنت بعت لأكثر من عشرة، هذا بعته كيسن وغيره عشرة، أبو الكيسين صعب يبوق كيس أخر أو أكثر، لكن أبا

العشرة وأزيد ممكن فإذا تعرف من هم سواق وحمالين مشتري العشرة وأزيد ويتبين أنهم نفسهم كل مرة فيمكن الاشتباه بيهم، وأنت صاحب الرأي والتدبير.

- أنا صرت أشك بواحد اسمه صخيل، أكيد هو، ما غيره، حرامي ومعلم أولاده وأحفاده على البوق. راح أسخم وجهه في السوق. اسمه صخيل وشكله صخيل. والله عمي أنت شاب ذكي والله يوفقك!
- -أشكرك عمي هذا من حسن ظنك وأنا بخدمتك

وقف عواد على أطراف أصابع قدميه وقبّل رأس عصفور، قبل ذلك لم يقبّل عواد رأس أحد سوى أفراد عائلته.

بات عصفور ليلته الثانية في أم السراجين في علوة عواد تاجر التمن، وفي الصباح وبعد تناولهما الفطور المعتاد من أسياخ اللحم والبقدونس والبصل سأل عواد عصفور إن كان منامه مريحاً فصارحه بأن نفسه ضاق برائحة الغبار المتطاير، ولكنه يحمد الله وعواد على كرمه وضيافته. اقترح عواد عليه استئجار غرفة في نزل في البلدة وأخرج من جيبه ديناراً ليدفع منه أجرة الغرفة لشهر فرفض عصفور وأصر على الرفض لأنه قادر على دفع الأجرة من النقود التي حصل عليها من بناء السّدّ.

توجه عصفور إلى نزل حصوة في آخر السوق، وجده جالساً عند الباب يقشر باذنجان، ويأكل القمع بنهم. دينار أجرة المبيت في غرفة لوحده ونصف دينار لغرفة مشتركة، وطمأنه بأن كل نزلاء أوادم. اختار عصفور غرفة مشتركة. مرحاض واحد لكل النزلاء الثمانية، افاق عصفور قبلهم ليقضي حاجته، عباس شريكه في الغرفة، قليل الكلام. لم يبد أي اهتمام بعصفور سوى سؤاله عن قبيلته وديرتها، وفي

المقابل اكتفى بأنه من المعدان، وقبيلته تسكن الأهوار. لا يخرج عباس من الغرفة إلا للمرحاض، اتفق مع صاحب مطعم السوق على مبلغ مقطوع مقابل غداءه وعشاءه، وفطوره كعك بخصم ناشف يغمسه في شاي أسود حلو يعده حصوة للنزلاء من دون مقابل. خمّن عصفور بأن سراً ما يحبس زميله في الغرفة، لم يكن وقتها يفهم في السياسة والأحزاب الممنوعة والشيوعية فذهب ظنه إلى أن يكون عباس إن كان هذا اسمه الحقيقي مطلوب بثأر أو كسرة وجه اقترفها في قبيلته أو غيرها من القبائل ويخشى من مطارديه.

في اليوم الثالث لعصفور في بلدة أم السرجين لم يتناول الفطور مع عواد في العلوة، ونوى زيارته بعد الظهر لأنه سيكون منشغلاً ذلك اليوم في البحث عن مصلحة يرتزق منها لأن نقوده لن تكفيه طويلاً في البلدة وليس مؤكداً أن يكلفه شيخ ببناء سّدّ في الشهرين القادمين قبل موسم الأمطار وامتلاء النهر بالمياه. جال في السوق عدة مرات، حتى خشي أن يظنه أصحاب الحوانيت لصاً يترصدهم ليختار هدفه في الليل. سأل عن أجرة دكان صغير فتبين له بأن نقوده لن تكفي لأجرة أكثر من شهور، قبل الظهر استقر على شراء عربة يحملها بالقليل من البضائع الرخيصة، ويجول بها في السوق والأحياء القريبة من البلدة. لم يبخل عليه بعض أصحاب الحوانيت بالنصائح حول البضاعة الأكثر رواجاً، وقضى بقية يومه في مقهى السوق بعد أن ركن العربة قريباً في التفكير بأحسن البدائل. بعد انتهاءه من غداءه في المقهى انتبه لمجيء صاحب المقهى. نهض ليسلم عليه ويعرفه بنفسه. ما أن جلس أبو زناد بجانبه حتى بدأ بسرد قصة حياته على عصفور. ولا بد بأنه أحس بالبديهة بأن عصفور شاب حساس. وسيتعاطف معه. أبو زناد عجوز، اشتكى له من المرض وانقطاع

الذرية بعد وفاة كل أولاده بالحمى في أعمار مختلفة، وتوقع أن يتوفى قريباً فلا يجد له وريثاً، وسأل عصفور إن كان يرغب بشراء المقهى، فكر عصفور قليلاً وأجابه بأنه سيكون سعيداً لو استطاع ذلك، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، ووعده بأنه سيعمل بهمة ونشاط ليجمع نقوداً كافية ليشتريه. لمس أبو زناد جدية الشاب الجالس بجانبه فأخبره بصوت خافت بأنه سيقبل ببيع نصف المقهى والباقي بعد ذلك متى استطاع عصفور.

اشترى عصفور بضاعة متنوعة لعربته، ضمنها ضروريات البيوت البسيطة وحلويات رخيصة للأطفال والشباب، شموع وقداحات ومسابح وقلائد وعقود من الخرز ودفاتر للطلاب وإبر الخياطة وملبس وعلكة. وافق حصوة على إيداع عصفور العربة وصندوق المؤن في مخزن النزل مقابل أجرة شهرية زهيدة.

في اليوم التالي أفاق عصفور قبل الفجر، صلى وبدأ بتوضيب بضاعته على العربة ثم زيّنها بأوراق ملونة ووضع وسطها قطعة خشب صغيرة خط عليها عبارة يا رزاق يا كريم. توجه نحو علوة عواد، أول ما لمحه عواد نهض بسرعة من وراء مكتبه ليلاقي عصفور عند الرصيف. رفع يديه وكأنه يريد احتضان العربة، وعلت وجهه ابتسامة عريضة:

- على الخير والبركة.

ركن عصفور عربته أمام العلوة ومشى نحو عواد ليمسك بيده وأدنى فمه ليقبلها فسحبها عواد بسرعة:

- استغفر الله! استغفر الله! ما شاء الله عليك. قبل يومين كنت غريب على بلدتنا والآن أنت أحد تجارها.

- العفو عمي انا بائع على باب الله.
- مكتوب لك التوفيق لأنك طيب وعلى خلق. قبل ما أنسى، عندي لك بشارة حلوة.

تهلل وجه عصفور.

- زارني وكيل شيخ من البغارة، معرفة قديمة، وبين السوالف أخبرته عنك والسّدّ الذي بنيته. قبل ما يسمع كل التفاصيل ترجاني يكلمك. تكرم فاض مرحاض العلوة أمس فراح يقضي حاجته عند جرف الشط. وراجع حتى تتفقون على العمل. أنا قلت له بأنك أخذت خمس وعشرين ديناراً من شيخ قبيلتك وأبدى استعداده لدفع أي مبلغ لمن يشغل مضختهم قبل جفاف شتلات زرعهم. تقضي يومين عندهم تأجل فيهم شغل العربة و.

قطع عواد كلامه ورفع يده مشيراً باتجاه النهر وأكمل:

- هذا هوه سيد عجيل! ومخاطباً ضيفه: تفضل سيدنا. هذا عصفور أبو السّدّ.

قبلّ عصفور يد السيد كعادة الناس في قريته، ولم يسحبها السيد.

قام عواد من كرسيه وأصر على جلوس السيد مكانه. انشغل السيد بارتداء عباءته وجواربه وتعديل عقاله على رأسه بينما طلب عواد من صبي العلوة جلب الإفطار المعتاد، ستة أسياخ بدلاً من الأربع. التفت السيد إلى عصفور مبتسماً:

- ما شاء الله شباب وتبني سدود. لما تكبر وتصير بعمرنا راح تبني عمارات وجسور حديد.

- مولانا هذي يريد لها أجانب شقر من بلاد الفرنج، حتى توزيع المياه كل سنة يجي مهندس إنكليزي ما يعرف كلمة عربي حتى يعلمنا كيف نزرع.

قلب السيد شفتيه معبراً عن استنكاره:

- احنا علمناهم الزراعة قبل آلاف السنين لكن قصّرنا، تكاسلنا وقعدنا وهم ركضوا وغلبونا. المهم الآن تقدر تأتي معي غداً لأن المسألة ما تتحمل التأجيل.
- حاضر مولانا. سأكون بخدمتك من الغبشة.
- ممتاز! قبل ما نلتزم لا بد تعرف إن العملية ليست هينة. شطنا ملتوي مثل الحية، والمضخة منصوبة في مكان صعب. الله يسامح الذي اختار لها ذلك المكان.
- الله يقدرني وأبيض وجه.
- ابني عصفور! بإذن الله نلتقي غداً عند العلوة. أكتري سيارة ونتوجه إلى البغارة ومنها إلى قرية العدلة حتى نكون بمضيف الشيخ في الصباح.

بعد مغادرة عصفور العلوة، دفع عربته وجال فيها عدة مرات في سوق الصوب الكبير، وعبر الجسر العائم بسرعة غير آبه لزمارة سائق غاضب، لاحقه ببوقه حتى بلوغه آخر الجسر. دار بالعربة بين بيوت الصوب الصغير، من نادي الموظفين شمالاً حتى بساتين اليهود جنوباً ثم نحو محطة الوقود عند نهاية شارع النجف، وعاد بها ليوقفها أمام المدرسة الابتدائية منتظراً خروج الطلاب عند انتهاء الدوام.

قبل غروب الشمس عاد إلى النزل . أوقف عربته بجانب صندوق المؤن وأقفل باب المخزن. فاجأ مقدمه زميله في الغرفة. سارع عباس لدس كرّاسة تحت فراشه.

- في أول يوم شغل فترت همتك بسرعة!

ابتسم عصفور ورد:

- الهمة موجودة والحمد لله لكن عندي شغل مهم غداً ولازم أمش من الغبشة.
- بالتوفيق.

**

بعد انتظار قصير اقتربت سيارة من مكان وقوف عصفور وأشار السيد إليه. وقف عصفور حائراً أمام باب السيارة، لم يركب سيارة من قبل، أدرك السيد حيرة عصفور ففتح له الباب من الداخل وأوسع له في المقعد ليجلس. انطلقت السيارة بهم نحو الشمال، وشعر عصفور بالارتياح لأنهم على الأقل لن يمروا على الجسر المتأرجح. خرجت السيارة من آخر بناء من البلدة إلى طريق ترابي.

ـ يقولون بأنهم سيبلطون الشارع من الدبرانية حتى النجف، لكن متى ألله أعلم! نحن قبائل وبلداتنا صغيرة. المهم عندهم المدن الكبيرة والحضريين.

- والجسر هذا كأنه مرجوحة أطفال.

ضحك السيد:

- - هذا من مخلفات الإنكليز الله لا يردهم!

عند منتصف الطريق شعر عصفور بالغثيان. الطريق ترابي، حفرت فيه عجلات الشاحنات أخاديد، تضطر السائق للمناورة يميناً ويساراً، وحتى والنوافذ مغلقة تسرب التراب إلى داخلها، ومنها إلى العيون والأفواه، وازداد الشعور بالاختناق مع نفاذ رائحة البنزين. صبر عصفور حتى نفذ صبره، فترجى السيد إيقاف السيارة. نزل ليستفرغ فطوره على جانب الطريق ثم عاد. اعتذر من السيد والسائق.

لا توجد طرق معبدة أو ترابية مؤدية إلى قرية العدلة. والوصول إليها مشياً أو بالقوارب من أقرب بلدة. سارع عصفور للترجل من سيارة الأجرة وسط بلدة صغيرة، لا تختلف البعارة كثيراً عن أم السرجين، وسار وراء السيد نحو شريعة النهر، ولاحظ تدني منسوب المياه مثل نهر أم السرجين. نادى السيد على شاب يجلس داخل زورق صغير، فنهض ليدفع قاربه بالمرديّ إلى حيث وقف السيد وعصفور. اضطر الملاح لاستعمال المردي لإيصال زورقه إلى وسط النهر ليتمكن من استعمال المجداف.

انحدر الزورق في وسط النهر، وانصب اهتمام عصفور على مجرى النهر، نبأه حرص الملاح على إبقاء زورقه وسط النهر بانخفاض منسوبه وارتفاع جانبي النهر وشح المياه فيها، وسيكون عليه التحسب لتعرج مسار النهر، وليس لديه وقت لعمل نموذج مصغر للنهر عند المضخة. انتبه للسيد وهو يشير بيده إلى مكان قريب، وشاهد مضختهم، أكبر من مضخة شيخ جماعته التي أنشأ لها سّدّاً، وموقعها عند منعطف آخر للنهر، وخنزيرتها مكشوفة وسط طين الشاطئ، واقتنع بأن قول السيد بأن السّدّ لن يكون سهلاً، فعليه أن

يأتي بالماء من وسط النهر وبكميات كبيرة لكي يغطي الخنزيرة ويسمح بتشغيل المضخة. فكر عصفور بأنه لو خيروه بين المضي في تنفيذ المهمة أو الاعتذار عنها لربما اختار الاعتذار لأنه أسلم وأجدى له ولسمعته من المحاولة والفشل، لكن ذلك الاختيار الأهون بات الآن صعباً. سيحاول وليكن ما يكن.

اضطر الملاح لتجاوز المضخة بحثاً عن مكان مناسب لنزول الراكبين عن زورقه من دون أن يعلقا في طين النهر، وأفضل ما وجده لم يكن كافياً لتجنب غطس أقدامهم في طين لزج وحتى الكعبين، تعقبهم من جرف النهر رجل أسود خمّن عصفور بأنه من عبيد الشيخ، وتلقاهم عند مكان رسو القارب ليساعدهما في سحب أقدامهما من الطين والصعود إلى الجرف، ثم أحضر إبريقي ماء وبدأ بغسل قدمي الشيخ فيما تولي عصفور غسل قدميه بنفسه.

سار الثلاثة وسط بساتين نخل وصفين من الأكواخ الطينية، وأثار مسيرهم فضول أطفال الجماعة الذين توقفوا عن ألعابهم ليرقبوا الثلاثة، اثنان مألوفان والثالث زائر غريب. بعد انتهاء البساتين لاح لعصفور مضيف الشيخ بلونه الأصفر المعتاد، من بعيد بدا بأنه أكبر من مضيف جماعته. للمضيف دكة عالية توقياً لفيضان من جهة النهر أو المزرعة. دخلا المضيف وسلما فقام جميع الحاضرين إجلالاً للسيد الذي توجه إلى صدر المجلس حيث جلس رجل كبير السن، افترض عصفور بأنه الشيخ. سلم السيد على الشيخ، وعرفه على عصفور. أفسحوا المكان لجلوس السيد الوكيل على يمين الشيخ وجلس عصفور بجانبه.

جال الرجل الأسود المكلف بقهوة المضيف على الحاضرين. هم بصب القهوة للشيخ، فأشار إليه بإصبعه إلى السيد، وكان دور

عصفور الثالث. بانت أسنان الشيخ الأمامية الذهبية عند شربه لفنجان القهوة، اكتفى بفنجان واحد، هو الرابع ذلك اليوم، وسيتناول بضعة فناجين أخرى قبل انفضاض مجلسه.

التفت إلى عصفور وتفرس في وجهه قبل مخاطبته:

- من علمك بناء السّدّود، انت شاب في أول عمرك؟

أجاب عصفور من دون تردد وهو يمعن النظر في يديه المشبوكتين في حضنه:

- الفهم من الله محفوظ!

واصل الشيخ استجواب عصفور:

- ونعم بالله! لكن الإنسان يتعلم وأريد أعرف كيف ومتى تعلمت؟
- أشوف وأفكر وأجرب ولا أملّ ولا أتعب.
- أنت شاب حكيم وفاهم لكن لا تستهين بشطنا. هذا مثل الحية. من يسيطر على حية! ما أريد أعطلك عن شغلك. شوف ما تحتاجه واخبرنا حتى تباشر العمل غداً.

قام عصفور واستأذن من الشيخ. وسار بمعية السيد الوكيل إلى باب المضيف حيث طلب من أحد الواقفين اصطحاب عصفور إلى المضخة.

قبل ظهيرة اليوم توصل عصفور إلى طريقة إنشاء السّدّ، وكما شرح للشيخ والسيد قبل تناول الغداء في المضيف سيكون السّدّ من قسمين، لأن مجرى الماء أقرب إلى الجرف المقابل سيبني أولاً سّدّاً يمتد من الجرف إلى منتصف النهر، وهو مثل جسم الإبريق، والسّدّ الثاني يكمل الأول وهو بلبولة الإبريق وينحدر منه الماء نحو

المضخة. لم يتوقف الشيخ والسيد عن تناول الطعام وهما يستمعان إلى شرح عصفور، واكتفى الشيخ بالقول:

- موفق!

بعد الغداء انصرف الشيخ إلى قصره للقيلولة وبقي السيد يغالب النعاس. انهمك عصفور في إعداد قائمة بما يحتاجه بناء السّدّ، وقدمها للسيد. وعده السيد بتلبيتها في الغد بينما يتولى عدد من الفلاحين إزالة الطين وما حمله النهر من فم الخنزيرة وما حولها لتسهيل وصول الماء لها.

بات عصفور ليلته في المضيف، وعند الفجر أيقظه صانع القهوة وأحضر له فطوراً من البيض المسلوق والقيمر ودبس التمر والشاي، تناوله على عجل، قبل التوجه إلى المضخة. وجد خمسة من الفلاحين الشباب بانتظاره. نزع بعضهم أثوابه لئلا تتسخ والبقية اكتفوا بشد ذيولها حول خصورهم ونزلوا مع مساحيهم بحذر إلى قاع النهر بالقرب من خنزيرة المضخة، وقف عصفور وسطهم وبدأ بإزالة الطين من أمام الخنزيرة ونقله إلى خلفها، وقلده البقية، وبعدها نظفوا الخنزيرة من العوالق التي جرفها النهر.

قبل غروب الشمس اكتملت طلبات عصفور، أحضرت شبكات الصيد وأكوام البردي والتبن واصطفت القوارب عند ضفتي النهر، وقبل الانصراف تواعدوا على التجمع عند شروق الشمس للبدء بتنفيذ السّدّ. قضى عصفور ليلته في المضيف. تناول القليل من طعام العشاء الدسم المرسل من مطبخ قصر الشيخ، وكان نومه متقطعاً.

عند جرف النهر بالقرب من المضخة حضر عصفور والسيد والملاحون والفلاحون المكلفون بمدّ الشبكات واسنادها بالبردي والتبن وجريد النخل. استمعوا لشرح عصفور، وبعد الاستئذان من السيد أصدر توجيهاته، فانطلق الملاحون لنصب الشبكتين. الأسهل شباك بلبول الإبريق فبدأوا بها، وتمت من دون مشكلة. جرف التيار شبك الإبريق، حتى كاد اليأس يتسرب لنفس عصفور. نجحت المحاولة الثالثة. حبس عصفور أنفاسه وهو ينظر إلى تدفق الماء من الإبريق إلى البلبول ومنه نحو الخنزيرة، وانتظر امتلاءها بالماء. لم يكن تدفقاً كبيراً ولا سريعاً، خشي عصفور ألا يكون كافياً لتشغيل المضخة لفترة كافية لزراعة شتلات الأرز واروائها. عندما قدّر بأن مستوى منسوب الماء حول وداخل الخنزيرة كافياً أعطى إشارة إلى مشغل المضخة لتشغيلها. جرب عدة مرات من دون نتيجة، فخرج من بيت المضخة مستسلماً فطلب منه السيد تكرار المحاولة. أخيراً ضج المكان بصوت المضخة، فهلل الفلاحون والملاحون وانتظم الواقفون على الجرف في حلقة وتوسطهم رجل عجوز أنشدهم أهزوجة فدار المتحلقون حولة وهم يكررون كلامه المقفى.

صعد عصفور إلى الجرف، وقبل آخر خطوة مدّ السيد يده لعصفور، فظن أنه يريد منه تقبيلها لكن السيد سحبها بسرعة قائلاً:

- هات يدك لأسحبك.

وأضاف بعد استقرار عصفور على الشاطئ:

- أحسنت يا إبني عصفور! بصراحة كنت قلقاً فالعملية ليست هنية، لكنك أثبت مهارة كبيرة. والآن إلى المضيف لنبشر الشيخ!

في الطريق عرض عصفور مساعدتهم في تنظيم زراعة الشتال وأخبره بأنه جرب هذه الطريقة الناجحة في تقليل كميات البذور وغزارة المحصول، وبما أن موسم الشتال سيبدأ بعد حين فسيكتفي إن وافقوا على شرح الطريقة وإذا وجدوها مفيدة يمكنهم تطبيقها عندما يحين الوقت.

تحمس السيد:

- إذا كانت طريقتك في الزراعة مثل سّدّك فسأعمل على تطبيقها بعد موفقة الشيخ بالطبع.

كان الشيخ في مضيفه بانتظار خبر عن السّدّ. زال القلق عن وجهه لدى سماع كلمات الحمد من السيد حال دخوله المضيف، فنهض لاستقباله وتبادلا القبلات على الوجنات، وراح الاثنان يرددان كلمات الشكر لله، وكافأ الشيخ عصفور بالربت على كتفه:

- عافاك! أحسنت! كفؤ! وعدت ووفيت.

أراد عصفور العودة إلى بلدة أم السرجين، لكنه اضطر أمام إصرار الشيخ على تأجيل مغادرته لليوم التالي. أمر الشيخ المبتهج بذبح خراف لوليمة الغداء، فارتفعت الأصوات بالثناء عليه والدعاء له بالرزق وصلاح الذرية.

توجه السيد للإشراف على توزيع مياه المضخة بين الفلاحين، ورافقه عصفور. كان يوماً استثنائياً للفلاحين المعتادين على أيام رتيبة من البؤس والهم، اطمئنوا على زرعهم للموسم وترقبوا للغداء الدسم في مضيف شيخهم، سيتناولون اللحم والأرز والمرق وحلوى الحليب، وبعد الغداء سيحملون الفضل لأبنائهم وزوجاتهم. سارع بعضهم لتقبيل يدي السيد الذي لولا بركته لما عادت المضخة

للعمل، وصافحوا عصفور بحرارة. بعد انتهاء إغراق الأرض بالماء أسرعوا في السير إلى المضيف، وانبرى أحدهم للترنم بأغنية حزينة، فنهره آخرون لأن اليوم للفرح لا الحزن.

ازدحم المضيف بالحاضرين، أجلس الشيخ السيد عن يمينه ومن بعده عصفور، وعلى يساره ضيف لم يشاهده عصفور من قبل. طغى لغط الحاضرين على هدير المضخة المسموع من بعيد فرفع الشيخ يديه طالباً من الجمع الصمت ليسمع صوت المضخة، في ذلك اليوم كان صوتها أطرب لسمعه من كل الأغاني التي استمع لها في شبابه وامتنع عن ذلك بعد وراثته المشيخة من أبيه حفظاً على المهابة والاحترام.

فرش خدام المضيف حصران الطعام الدائرية على سجاد المضيف، ثم تناوبوا على نقل الصواني النحاسية المثقلة بأكوام الأرز تعلوها كتل اللحم المحمس وطاسات المرق ووضعها على الأسماط، وانتظر الفلاحون أن تمتد يدي الشيخ للطعام ومن بعده السيد قبل البدء بالأكل. اكتفى عصفور بعدد قليل من وذرات اللحم وقبضات من الأرز، مما استدعى تعليقاً فكاهياً من الشيخ:

- اسمك عصفور وتأكل مثل العصافير.

فضحك الفلاحون وعصفور.

كانت تلك أول مرة يتذوق فيها بعض الفلاحين حلوى الحليب المعطرة بماء الورد، وعبروا عن تمتعهم بطعمها بالتمطق بصوت عال. بعدها انفض الجمع. غادر الشيخ إلى قصره مع ضيفه، وبقي عصفور مع السيد الذي نقده الأجرة المتفق عليها وخمسة دنانير إكرامية من الشيخ فشكره عصفور.

- عندي لك خبر يسرك. ابن عم شيخنا. كان جالس بجانبه يريد هو منك سداً وبنفس الأجرة. فماذا تقول؟

لم يتردد عصفور في القبول، ووافق على التوجه مع ابن عم الشيخ في صباح اليوم التالي.

لم يسهده التفكير في اللية الثانية التي قضاها في المضيف، وبعد إفطار من قشدة حليب الجاموس والدبس والعسل حضر ابن عم الشيخ، اسمه مطرود وأرضه تقع حدر ابن عمه، وأقل مساحة، لكن تربتها أخصب كما أخبره مطرود، ومجرى النهر بجانبها مستقيم لا متلوي كما هو حال مسرى النهر المحاذي لأرض ابن عمه، وطمأنه بأن مهمته ستكون أيسر، وبنفس الأجرة. مطرود شاب في الثلاثينات من عمره، تقاسم أرض والدهم مع سبعة من أخوته، ثلاثة منهم اختاروا حياة المدينة والثلاثة الباقون قصر وهو المسؤول عن زراعة الجميع وتسليم ساكني المدينة حصصهم من العائد ويصرف على القصر والأخوات.

مضيف مطرود أصغر وكذلك قصره. دعا عصفور لرؤية خيوله الأصيلة في الإسطبل المجاور للقصر. وقفت أفراسه الستة آخر الإسطبل، فيما راح الفحل يجول يميناً وشمالاً كأنه يحرس أناثه من الغريب. توقف مطرود عند المدخل ومشى نحو الحصان. أحنى الحصان رأسه ليربت مطرود عليه وتشمم يده وكأنه يريد تقبيلها. عند خروجهما سأله عصفور إن كان الفحل يقبل يده فضحك مطرود.

- هذا فحل شايف روحه. ما يبوس إيد أحد، وليس مثل الفلاحين المساكين. أنا عودته على اطعامه قطع السكر بيدي.

علق عصفور:

- حصان مدلّل! يستأهل!
- أريد أريك بستاني أو سميها حديقتي خلف البيت.

سار عصفور وراءه إلى حديقة واسعة يحيط بها سور عال وبابها موصد بالقفل. أخرج مطرود مفتاحاً من جيب ثوبه وفتح القفل. هفت رائحة زكية من داخل الحديقة.

- شم! شم! هذه رائحة زهور شجرة البرتقال. ما في بالدنيا رائحة شذية مثلها.
- الله! صحيح يا محفوظ كأنها رائحة من الجنة.
- شوف هذي أشجار الفاكهة، أكثر من أربعين شجرة كلها اشتريتها وحملتها من أماكن بعيدة وزرعتها بيدي.
- يا ليت كل هذي الأرض حدائق مثلها.
- لا يا عصفور الناس ما تعيش بالفواكه فقط تريد حنطة ورز.
- عندما تشتغل المضخة ستروي الأرض والحديقة.

قلة حضروا في المضيف، رجال القبيلة من كبار السن وشاب بملابس إفرنجية. الأفندي مهندس ري المنطقة، ومن أقارب الشيخ، سمع بالسّدّ الذي مدّه عصفور، وحضر ليشاهد بعينه عمله. أوجس عصفور من مصافحته الباردة وجمود ملامحه. كلف الشيخ وكيله بإحضار ما يطلبه عصفور لبناء السّدّ فقام وترك المضيف. تململ المهندس وخاطب عصفور بحدة:

- عملك غير قانوني. أنت تسد مجرى النهر من دون رخصة من إدارة الري.

بهت عصفور، توقع مديحاً، وسمعه مراراً في الأيام الأخيرة، حتى ظن بأن كل الناس راضين عن عمله، فاجأه مهندس الري قريب الشيخ. أسعفه عقله بجواب:

- كيف يكون سقي الأرض والزرع عمل غير قانوني؟ أنت تعرف أحسن مني، بدون ماء لا زرع ولا طعام وسيجوع الناس.

لم يخفف جواب عصفور المنطقي من غلواء المهندس:

- هذا ليس شغلك. الحكومة هي الكفيلة بتوفير الماء للزراعة، وهي تعمل ما بوسعها لضخ الماء قريباً.

تدخل الشيخ:

- عمي يا خشان. كلام عصفور فيه كل العقل. إذا اشتغلت المضخة فسألحق وأزرع أفلي وإلا لن نزرع حتى العدس وستموت شجراتي.

خاطب المهندس قريبه الشيخ بلهجة هادئة خلت منها حدة كلامه مع عصفور:

- أبا عقيل! أنا وياك! أريدك تزرع لكن السّدّ سيمنع الماء من الأراضي حدر أرضك. بعدين أنا موظف حكومي وأنفذ القوانين والتعليمات.

انبرى عصفور للرد على المهندس:

- لا يا أستاذ! هذا تدبير مؤقت لدفع الماء نحو المضخة وليس حائطاً لمنع الماء عن السيلان في النهر. حتى عندما تشتغل المضخة لن يتوقف مجرى الماء. وبعد آخر سقية يمكن إزالته بالمرادي في يوم واحد.

أمسك الشيخ يد قريبه وكأنه يريد منه انهاء الجدال مع عصفور:

- خشان! أسمعت كلام عصفور. أعدك بأني لن استعمل المضخة إلا بالحد الأدنى.

في اليوم التالي أشرف الشيخ وعصفور على بناء السّدّ وبعد تشغيل المضخة ومشاهدة سقي حديقة الشيخ استلم عصفور ثلاثين ديناراً وعاد إلى أم السرجين.

استغرقت رحلة العودة إلى بلدته طيلة النهار، بعد ثلاث محطات وقوف وانتظار وعطل في الشاحنة الخشبية، تلمس عصفور طريقه على الجسر المترجح وسط ظلام لا يعاكسه سوى ضوء خافت وحيد أعلى باب مبنى الحكومة. خلا الشارع المؤدي إلى النزل من المارة سوى كلاب نبحته من أول الجسر حتى آخر دكان. انتبه لوقع حذاء كبير على الطريق وراءه، غذّ المسير لكن الحذاء تابعه. توقف نباح الكلاب لدى سماعها صراخ صوت أجش. لأول وهله ظنه عصفور استنجاد.

- قف عندك!

صدر الصوت من خلف عصفور وأدرك بأنه المقصود بالأمر. امتثل لصاحب الصوت وتوقف غير بعيد عن باب النزل.

اقترب صاحب الصوت الأجش فتبين لعصفور بأنه شرطي، وعن قريب طالعه وجه الشرطي المجدّر الذي وجده نائماً عند مدخل مخزن عواد للحبوب فأهانه وصفعه. جفل من وخزة في بطنه ففاجأه مسدس الشرطي منتهكاً وسط بدنه.

- والله وقعت يا حرامي. طالع تدور على بيت أو دكان تسرقه.
- عمي! أنا كنت خارج أم السرجين والحين وصلت ورائح إلى النزل هذا بابه أمامك.

تصنع الشرطي الغضب الهائج ليرهب عصفور:

- كذاب وألف كذاب! ما تعرف بأنه ممنوع التجول بعد العاشرة مساءً بأمر سعادة وزير الداخلية الباشا المحترم حتى أمثالك من الحرامية والمخربين ينطمرون في أوكارهم.
- ما العمل والسيارة تعطلت وما صلت إلا قبل قليل.

وضع الشرطي يده اليسرى على عنق عصفور واستمر في التلويح بمسدسه تجاهه.

- لازم أقبض عليك وأجرّك إلى المقر وهناك تتفاهم مع عريف الخفر.
- أكيد العريف سيفهم الموضوع لكن شيل يدك عن بلعومي!
- امش بدون كلام!

سار عصفور أمام الشرطي. جاهد للسيطرة على أعصابه متجاهلاً وخزات مسدس الشرطي وهو يدفع به نحو مبنى الحكومة.

طرق الشرطي الباب فسأله صوت من الداخل عن كلمة السر فأجابه الشرطي بكلمة: ملك. انفرج باب المبنى الخشبي السميك عن وجه شرطي يغالب النعاس ويمسك ببندقية أسندها على أرض المبنى المبلطة بالموزاييك.

نهره الشرطي المجدر:

- اعتدل يا غبي! إذا شافك العريف أكيد سيوجه لك عقوبة وقطع راتب.

ضحك الشرطي حارس الباب:

- فوت! فوت! واكرمنا بسكوتك! من هذا معاك؟
- هذا مشرّد! أشك بأنه حرامي كان يترصد بعد ساعة منع التجول. بعد العرض على العريف أكيد مصيره السجن.

اقتاد الشرطي المجدّر عصفور إلى غرفة معتمة في آخرها مكتب صغير جلس وراءه العريف، أمامه سجل ضخم مفتوح وبيده قلم

صغير. رفع رأسه ونظر إلى عصفور بازدراء. حيا الشرطي رئيسه بيده وخبطة حذاء قوية على أرض الغرفة.

- سيدي! هذا واحد قبضت عليه وهو يتجول في الشارع من دون هوية وبعد ساعة منع التجول. أشك بأنه حرامي أو سيوعي مخرب ويمكن هارب من السجن. سبق وأن وجدته نائماً في الشارع.

انبرى عصفور للدفاع عن نفسه:

- عمي! أنا ساكن بأم السرجين وعندي عربة أبيع منها على باب الله وكنت عند شيوخ ووصلت قبل قليل وكنت رائح إلى النزل، والشرطي جرّني إلى هنا.

استنفر الشرطي المجدّر :

- سيدي! هذا واحد مشبوه، لو حققنا معه فسيقرّ بكل شيء.

وضع العريف قلمه جانباً وأمعن النظر في عصفور. أخرج سيجارة ملفوفة من علبة معدنية وأشعلها بزناد:

- فتش المشبوه!

امتثل عصفور لأمر الشرطي المجدّر برفع يديه إلى أعلى من رأسه، مطمئناً إلى أنه لن يجد سلاحاً أو مسروقاً. أدخل الشرطي يده في جيب عصفور وأخرج منه الدنانير الستين التي قبضها من بناء السّدّين وأقل من دينارين كانا معه من قبل، عدها ببطء قبل أن يضعها أمام العريف:

- سيدي! هذي أكثر من خمسين دينار مخبئة في جيب المشبوه. أكيد سرقها ويمكن ارتكب جريمة أخرى وهو يسرق.

- عمي! هذا فلوسي حصلتها بالحلال من شيخين والله يشهد والمبلغ فوق الستين دينار وليس خمسين.
- اسكت! لا تتكلم إلا إذا سألتك أثناء التحقيق.

اقترب الشرطي من طاولة العريف وفتح الدرج ودس يده فيه. استقرت دنانير عصفور العشرة داخل الدرج الذي سارع العريف إلى إغلاقه بعد سحب الشرطي يده منه.

أمر العريف مرؤوسه بجلب الشرطي المسؤول عن تدوين محضر التحقيق، عاد بعد قليل بمعية شرطي نحيل يرتدي نظارة سميكة. بدأ العريف التحقيق:

- اسمك وعمرك وعنوانك؟
- عصفور وعمري عشرون سنة أو أقل وأسكن في نزل في أم السرجين.
- عندك هوية أو شهادة تولد؟
- لا
- أنت خالفت قرار منع التجول صادر من وزير الداخلية.
- ما عندي علم بهذا المنع.
- وجدنا في جيبك خمسين ديناراً فمن أين حصلت عليها؟
- عمي في جيبي ستون دينار، خمسون أمامك والباقي عندكم حصلت عليها من عملي مع شيخين من شيوخ المنافيخ في البعارة؟
- كل ما وجدناه خمسين دينار فقط وهذا راتب مدير عام لشهر كامل؟ تريدنا نصدق بأنك حصلت عليها بكدك وعرقك! أفضل لك تعترف وتقول الحقيقة وإلا مصيرك السجن.

- ما قلت إلا الصدق وعندك الشيوخ اسألهم وهم سيشهدون معي.

نظر العريف إليه باستهزاء وهز يديه:

- وي! وي! يريدنا نرسل وراء شيوخ كبار حتى يشهدون لحضرة جنابه المحترم.

ومخاطباً الشرطي المجدر:

- احبسه وفي الصباح يعرض على رئيس الشرطة.

عاد الشرطي لوضع يده حول عنق عصفور فأمسك بها عصفور وضغط عليها بقوة حتى اضطر الشرطي لسحبها من شدة الألم وبالكاد أوقف نفسه من التأوه حتى لا يسمعه العريف. همس في إذن عصفور:

- امش! وإلا أحطك في التاسعة.

رد عصفور هازئاً:

- ما التاسعة؟
- زنزانة مثل قفص الدجاج نسجن فيها المجرمين أمثالك.

دفعه الشرطي داخل زنزانة مظلمة وأقفل بابها وانصرف يتحسس يده التي عصرها عصفور.

سلم عصفور على الظلام مفترضاً وجود مساجين في الزنزانة فلم يجبه أحد. اختار زاوية قريبة من الباب الحديدي وجلس فيها. أرّقه التفكير بوسيلة للخلاص من السجن. في الصباح اقتاده شرطي غير المجدر إلى غرفة واسعة، جلس في نهايتها البعيدة رجل حاسر الرأس شعره أحمر وبشرته بيضاء محمّرة، لم ير عصفور له مثيلاً من قبل.

أطل من صورة كبيرة معلقة على الجدار خلف مكتب الرجل الأحمر وجه شاب بملامح غير مألوفة أيضاً، يرتدي بزة عسكرية بيضاء مثل شرطي المرور الوحيد في أم السرجين. خمن عصفور بأنه الملك وبجانبه الأيمن صورة لرجل أكبر سناً.

اقشعر بدن عصفور من السهر والجوع وهواء مبردة أطلت فتحتها من حائط جانبي ويرقص هواءها الرطب شرائط ملونة ملتصقة بها. تفرس رئيس الشرطة في وجه عصفور المتعب وملابسه المتسخة من أرض الزنزانة القذر، ولم يلحظ عصفور في نظراته ولو القليل من الرثاء لحاله فازداد يأسه:

- عمي! أنا إنسان مظلوم! حبسوني من دون تهمة وأخذوا فلوسي.

كان صوت "الحمري" أبرد من هواء المبردة:

- اخرس! لا تتكلم من دون إذن.

عاد "الحمري" لتفحص الأوراق على مكتبه.

- هذا مصلاوي! در بالك!

لم يفهم عصفور تحذير الشرطي لكنه استشف من كلامه شيئاً من التعاطف جعله يفكر بالاستعانة به لإيصال رسالة إلى أبي عواد.

من دون أن يرفع رأسه عن أوراقه ارتفع الصوت الثلجي لرئيس الشرطة:

- ثلاثة أيام حجز. ماء وخبز فقط وإذا ما يعترف بعدها فلقة.

تذكر عصفور كلمة فلقة من أيام حضوره دروس الملا لأولاد الشيخ، كان تهديده فارغاً، وطلابه مدركون لذلك، فلم يأخذوه على محمل الجد، فشاغبوا وأهملوا دروسهم إلا هو فحسدوه ومقتوه.

قبل وصولهما إلى الزنزانة استوقف عصفور الشرطي وترجاه بصوت خافت:

- لك عندي دينار لو تروح لعواد في العلوة وتخبره بأن عصفور مسجون.

بدا على وجه الشرطي التردد:

- وإذا سألوه كيف عرفت؟ أخاف يخبرهم باسمي وأتورط مع المصلاوي. هذا لا يرحم.
- لا! قل له بأنه عرف من واحد شافني أدخل السراي مع شرطي.
- أنت مظلوم وراح أساعدك.
- أنا ممنون. وأخوي أنخاك تروح له اليوم.

هز الشرطي رأسه موافقاً. أقفل باب الزنزانة واختفى في ظلام الممر.

بعد صلاة الظهر والعصر هرع عواد إلى السراي وطلب مقابلة العريف. حاول العريف التهرب من تلبية طلبه رؤية عصفور. أصر عواد وتظاهر بأنه سيذهب لجلب محامي يتولى القضية. وافق العريف على مضض. بعد الظهر سمع العريف توبيخاً قاسياً من رئيسه لأنه سمح لعواد برؤية عصفور ولأن الاجتماع بينهما دار في الزنزانة لا في غرفة العريف.

خرج عواد من السراي بعد قطعه وعداً لعصفور بفعل كل ما يستطيع لإخراجه من السجن واسترجاع نقوده بالكامل. ذهب مباشرة إلى مكتب البريد وأرسل برقية مستعجلة إلى شيخ المنافيخ يترجاه التوسط لإطلاق سراح عصفور المتهم بسرقة مبلغ عمله لديه ولابن عمه وبأنهم استولوا على نصف المبلغ. غضب الشيخ إثر قراءته البرقية وتوجه إلى البلدة القريبة لمكالمة أخيه الأصغر عضو البرلمان، وبعد شرح قضية عصفور الذي أنقذ أرضهم من البوار وسجنه بتهمة باطله أمره بالاتصال فوراً بوزير الداخلية لإطلاق سراح عصفور وإرجاع كامل المبلغ الذي استولى شرطة أم السرجين منه. اتصال عضو البرلمان بمدير عام الداخلية حرك المياه الراكدة في الوزارة، فتجاوز سلسلة المراجع بمكالمة مباشرة مع المصلاوي، استخدم فيها عدداً غير قليل من كلمات مهينة وواحدة بذيئة وأمره فوراً بالإفراج عن عصفور والاعتذار له وتسليمه كامل نقوده وإلا، وكانت كلمة إلا أشد وقعاً على نفس المصلاوي من الإهانات والشتيمة، فسارع إلى استدعاء العريف وأسمعه إهانات وبذاءات أقبح وأمره بإخراج عصفور من السجن وارجاع نقوده كاملة حتى الفلس النحاسي الواحد والاعتذار له.

سار عصفور من السجن إلى علوة عواد ليشكره، فتلقاه عواد بالاحتضان عند باب العلوة. بنظرة فاحصة أدرك بأن عواد لم يذق طعاماً منذ القبض عليه، إلا الخبز والماء كعادة الشرطة في ضيافة السجناء الجدد. من دون سؤال عصفور أرسل عواد غلامه ليحضر غداءً من المطعم. حكى عصفور لعواد تفاصيل عمله مع شيوخ المنافيخ وسفرته من قريتهم إلى أم السرجين التي بلغها بعد حلول الظلام وساعة منع التجوال وقبض الشرطي المجدّور عليه وسوقه

إلى السراي أمام العريف والمصلاوي واستيلائهم على نصف نقوده. استمع عواد لتفاصيل محنة عصفور مع الشرطة وطمأنه بأن القضية سويت وبأنهم سيتحاشون التحرش به بعد اليوم وتدخل رؤسائهم في العاصمة لإطلاق سراحه وضحك عواد حتى اهتز كرشه ممازحاً عصفور:

- دعهم يعتقدون بأنك شخصية مهمة وعندك نفوذ في وزارة الداخلية.
- الحمد لله! الفضل من بعد الله لك يا عمي ولشيوخ المنافيخ.

نصحه عواد:

- لو ترسل برقية للشيخ تشكره على تدخله لإطلاق سراحك يكون عرفان بجميله.

قبل انتهاء دوام مكتب البريد ذلك اليوم أرسل عصفور برقيتي شكر لشيخ المنافيخ وابن عمه. بعد غسل بدنه وملابسه من أوساخ السجن زار عصفور صاحب مقهى السوق ليبلغه بتدبيره المبلغ المتفق عليه لشراء نصف ملكية المقهى واتفقا على الحضور غداً أمام القاضي لتوثيق عملية البيع.

بعد إتمام البيع دعا عصفور صاحب المقهى وعواد لغداء في مطعم السوق أعد له مسبقاً مع صاحب المطعم وأوصاه بأن تكون سفرة تليق بضيوفه فيها كل أصناف اللحوم والسمك. اعتذر عباس عن حضور الغداء بدعوى الإرهاق، دليل آخر لوجود مانع قوي وراء مكوث عباس في غرفته معظم الأوقات فلا يزار ولا يزور، ولم يكن عصفور فضولياً فيلحّ عليه لمعرفة سبب انعزاله.

اجتهد صاحب المطعم في تنويع صنوف مأكولات العزيمة وتجويد طبخها، فنال عصفور من ضيفيه الثناء على حسن كرمه وضيافته فعاد إلى غرفته راضياً عن نفسه ليجد عباس يكتب في كرّاسته قبل أن يدسها على عجل تحت فراشه. خاطبه ممازحاً:

- أسمع دبي النمل لكنك تتسحّب مثل...

قاطعه عصفور:

- أسد؟ نمر؟
- كنت أريد أقول...لا بأس!
- تخاف على كرّاستك وأنت نائم عليها طول الوقت! فاتتك الوليمة. مكانك خالي. أوصيت المطعم يحضروا لك صينية وسيحضرها صبي المطعم بعد قليل.
- لم كلفت نفسك يا أخي؟ قل لي أين غبت كل هذي الأيام؟
- لا تذكرني! رجعت فرحان بعد ما بنيت سدين وجيبي معبأ بالدنانير. لكن الفرحة ما تمت.
- خير!
- تلقاني هذا الشرطي أبو وجه المحفور وأخذني للسراي. قال أنا خالفت منع التجول!

ضحك عباس:

- هذا قانون جديد أخرجوه بعد الانقلاب على الملك وخاله والإنكليز.
- ما دخلي أنا ابن الفلاح بالانقلاب على الأكابر؟
- لا تستهين بحالك يا أخي! أنت أكبر منهم. هم يقطعون الماء وأنت تسقي زرعهم.

- أرادوا نهب فلوسي. أولهم أخذ منها عشر دنانير، والثاني نصف الباقي، ولو ما تدخل عواد ونخوة شيوخ المنافيخ كان طلعوني بلا هِدْم.

ضحك عباس بأعلى صوته ثم انتبه فسأله بصوت خافت:

- سمعت بأنك أصبحت من ذوي الأملاك!

ابتسم عصفور:

- أحمد الله.

تنهد وأكمل:

- قلت أشتري بفلوسي حصة بالمقهى بعد ما سنت الشرطة أسنانهم عليها.
- زين ما سويت! صحيح المقهى ينفع الناس، يرتاحون فيها ويلتقون ويتسامرون لكن يا ليت اشتريت بها مصلحة تنتج وتفيد، يعني مثل عملك بالسّدّود.

تأمل عصفور قليلاً وأجاب:

- كلامك عين العقل لكن العين بصيرة واليد قصيرة. أشوف الأرض للشيوخ والبساتين والمطحنة والمجرشة لليهود والدكاكين للحضرية.
- لا تيأس أخي أبو غائب يأتي زمان الكبار يصغرون والصغار يكبرون.
- الله يسمع منك. ويصغر هذا الشيخ الظالم الذي طردني من عشيرتي وأهلي.

اشتاق عصفور لرؤية عائلته، فكر بطريقة لزيارتهم من دون معرفة الشيخ لئلا يغضب فيطردهم، زيارة السر في الليل خطرة، فقد يشتبه به وحاش ويطلق النار عليه، والتقنع بلثام في النهار غير مضمون، فهو يعرف جيداً فضول جيرانه وخاصة النساء، فما أن يسمعن بنباح كلب حتى تبرز وجوههن من وراء الأبواب لتراقب الطريق، وسيوقظ اللثام الظنون السيئة في نفوسهن، فهي قريبة جداً من السطح. الأسلم أن يدعوهم لزيارته في أم السرجين، وحتى لا يستنكف أبوه من الامتثال لمشيئة ولده، سيبلغهم بأنه يريد السفر سوية لزيارة الأئمة في النجف وكربلاء، ولم يبق سوى اختيار وسيلة لإيصال رسالته، ولا بديل من الاستعانة بطارش.

منذ الصباح الباكر لزم عصفور الطريق المؤدي إلى ديرة قبيلته بانتظار قريب أو جار ليخبر والده بما نوى عليه. شاهده صانع الأثاث من جريد النخل واقفاً على جانب الطريق فدعاه لشرب الشاي معه فقبل شاكراً. أصر على مساعدته في قص الجريد لإعداد أريكة، ولم يتوقف إلا عند مرور أحدهم قادماً باتجاه البلدة، ليتأكد إن كان من جماعته، وقبل الظهر شاهد أحد الذين شاركوا في بناء السّدّ فاستأذن من صانع الأثاث ليطلب من الرجل إيصال رسالة إلى والده.

عانقه والده وبكت والدته عند شريعة النهر حيث رسى القارب الكبير الذي اكتراه عصفور لينقل والديه من جنب مضخة شيخ قبيلتهما إلى أم السرجين، وعبر الثلاثة النهر في القارب إلى الضفة الأخرى، ليستقلا سيارة الأجرة الواقفة بانتظارهم. بعد حوالي الساعة على الطريق الترابي لم تتوقف السيارة إلا لبضع دقائق لتتقيأ والدته فطورها على جانب الطريق ويدخن والده سيجارة مزبن.

توقفت السيارة عند باب الحضرة العلوية وحتى قبل نزول الثلاثة منها ونفض ثيابهم من تراب الطريق تلقاهم سادن طالباً منهم تسليمه أي نذر نذروه للإمام، وطاردهم بإلحاحه حتى باب الصحن:

- عليكم الأئمة إذا ما تعطوني النذر. لا تحطّوه داخل الشباك يأخذه وما يعطي أحد.

تكرر المشهد مرتين في كربلاء. أرهقت الزيارة والدة عصفور فطلبت منه العودة إلى بيتها رافضة المبيت في كربلاء أو النجف، فامتثل لرغبتها.

مرت سنتان منذ إجلاء عصفور من ديرة قبيلته وسكناه في أم السرجين. بنى خلالها خمسة سدود وأصلح عدد من مضخات الماء واكتسب خبرة مضافة في صيانة المكائن، ولم يتوقف يوماً من التنقل بعربته في شوارع وأزقة أم السرجين منادياً على بضاعته. جمع عدة مئات من الدنانير أودعها عند عواد. قبل العيد توفي صاحب المقهى فأقام عصفور له عزاءً على حسابه، وانتظر حتى انتهاء الأربعين ليفاتح أكبر أبناءه حول المقهى. أبدى الابن استعدادهم لبيع الحصة المتبقية، ووافق عصفور من دون مساومة على دفع المبلغ الذي طلبه، فصارت المقهى ملكه بالكامل.

اختمرت خطة عصفور في إدارة المقهى بزمن قبل وفاة شريكه. بدأ بطلاء جدران المقهى واكساء أرضها ببلاط أبيض، واستبدل عدة الشاي من أباريق وأكواب وصواني وموقد النار، واستعان بنجار لإصلاح أرائك الخشب واستبدال التالف منها وكلف منجداً لإعداد فرش للكراسي فكان المقهى الوحيد في أم السرجين وربما جنوب البلاد الذي لا ترهق مقاعده الخشبية أدبار زبائنه، وأضاف على مشروبات مقهاه الليمون الحامض المحلى وورد لسان الثور والقهوة العربية، واشترى ملابس جديدة لعاملي المقهى وشدد عليهم في نظافة الايدي والملابس والمقهى، وزاد في معاشهم. صار مقهى عصفور المفضل لدى شيوخ القبائل والتجار وأثرياء أم السرجين وأريافها، حتى حسده صموئيل صاحب مقهى الشط.

في زاوية لصيقة بمقهاه ركن العربة التي دار بها في السنوات الثلاث التي قضاها في أم السرجين، وأوكل مهمة البيع منها إلى شاب نشيط، ليتفرغ هو لعمله الجديد. بالنقود المتبقية اشترى عصفور بيتاً قديماً وأرضاً خالية عند أطراف البلدة ودكاناً واسعاً آخر

السوق اختاره لمزاولة مهنة إصلاح مضخات الماء والمكائن الزراعية، ووظف إيرانياً بارعاً في المهنة ليساعده، وزود ورشته بمختلف قطع الغيار الأكثر استهلاكاً. في الأشهر الأولى لم تتجاوز عدد المضخات والمكائن التي أصلحها الاثنان الواحدة أسبوعياً، وبعد أن ذاع اسمه ونجاحه تضاعف عددها مرات، وغدا منافساً لورش الصيانة في النجف.

زار عباس في غرفته. جلس عصفور على السرير المعدني المتهالك. تذكر الليالي التي قضاها نائماً أو مسهداً عليه، تحتك أضلاعه برفاساته التالفة. اتفق مع صاحب النزل على عدم تأجيره وتكفل بدفع أجرته كما اعتاد :

- أشوف سريري القديم فارغ.
- يمكن لا أحد يريد السكن معي.
- هم الخسرانون. ما رأيك أبو فاضل في ورشة الصيانة؟ أخذت بنصيحتك لأن فوائدها أكثر من مقهى.
- أحسنت! تفيد وتستفيد! والناس تشكر لك.

بعد فترة صمت قصيرة.

- اشتريت بيتاً لي وأتمنى أن تقبل بالسكنى معي أخاً معززاً ومكرماً.
- ونعم الأخ الكريم أنت! لكن مثل ما تعرف أنا أحب الوحدة.. أجلس أو أستلقي في الفراش وأنستي الكتب.

قاطعه عصفور ممازحاً:

- أو كرّاسة!

رد عباس بنبرة استنكار مصطنعة:

- ما راح تغرب عن بالك الكرّاسة.
- لا! محرص عليها كل الحرص كأنها فلوس الشيخ القافل عليها في القاصة حد فراشه... خلينا بالبيت ذاك واسع ومريح وأفضل لك من هذه الغرفة المظلمة، وبدل كرّاسة واحدة ستملأ كرّاسات.

ضحك عباس:

- لو عبأت ثلاث كرّاسات فقط فستكون أول واحد يقرأهم.

حضر والده بعد أسبوع من زيارة المراقد. سأل عنه فدلوه على دكان تصليح المضخات والمكائن الزراعية. وجده منهمكاً في إصلاح مضخة صغيرة يستعملها أحد الشيوخ لسقي حديقة قصره. بعد تقبيل يد والده مشيا سوية إلى مقهى السوق. جاء العاملون في المقهى والدكان للسلام على والد عصفور، ثم عادوا لأعمالهم. بدت على وجه والد عصفور علامات الإعجاب بمقهى ابنه. تحسس الفراش النظيف على مقعده، واحتسى شراب الحامض ببطء، خاطبه:

- أحسنت يا عصفور! رفعت رأسي.

انتشى عصفور بمديح أبيه. رفع الرأس أغلى ثناء من والد لولده. وأسرع لتقبيل يد والده ورفعها إلى جبهته.

بعد الغداء صارحه والده برغبته في تزويجه بابنة عمه. وافق عصفور من دون تردد، ليس احتراماً لمشيئة أبيه فحسب بل لأنها جميلة ومؤدبة و"كحيلة" كما اعتادت أمها على وصفها، والكحيلة في لغتهم لا للعيون بل للتشبه بالمهرة الجميلة والنشيطة.

بعد مغادرة والده انهمك عصفور في الإعداد للزواج وتهيئة البيت لاستقبال عروسه. كلف معمار بتجصيص وطلاء بيته واستبدل الستائر واشترى أرائك ومقاعد ومناضد وأسرة وبطانيات وسجاد ومدافئ ومراوح ومبردة طعام وطباخ وطناجر وصحون ووظف خادمة. في أقل من اسبوع كان البيت جاهزاً لاستقبال عروسه، واتفق مع صاحب المطعم على وليمة العرس ولم يبق سوى اعداد قائمة بالمدعوين. أول من عرف بقرب زواجه عواد ومن بعده عباس.

في الجمعة التالية حضر أبواه. ما أن شاهدته والدته حتى انهمرت الدموع من عينيها. ظنها عصفور دموع الشوق إلى ابنها الذي أبعده

ظلم الشيخ عن رؤيته. قاد عصفور والديه في جوله بالبيت بعد إصلاحه وتجميله وتأثيثه، ولم تنقطع دموع والدته وأجهشت بالبكاء عند وصولهم إلى المطبخ. سارع عصفور لتقبيل كفها ورأسها فكففت دموعها. بعد الغداء تبددت حيرة عصفور من بكاء والدته، وصارحه والده بالسبب وراء ذلك، لم تكن دموع فرح بالتأكيد، بل حزن وغم وخيبة. رفض عمه تزويجه من ابنته، ونكاية به خطب والده ابنة عم آخر فرفض أيضاً، وعم ثالث آخر، وحتى خاله الفقير اعتذر. أجمعت عائلة عصفور الكبيرة على الامتناع عن تزويج أي من بناتها حتى الدميمات والقصيرات وسليطات اللسان والعانسات اللواتي تجاوزن العشرين من العمر على مصاهرة عصفور، ورجع والد عصفور خائباً كل مرة وبنفس العذر. الكل خائفون من انتقام الشيخ وحرمانهم من فلاحة أرضه والقليل من المحصول الذي يعطيهم بعد كل حصاد وطردهم من مضيفه ومقاطعة بقية العشيرة لهم.

في القبيلة قد يرفض العم تزويج ابنته من ابن أخيه فينتقم الخاطب الخائب بالنهوة، فيقف حائلاً بينها والزواج، وفي عرف العشيرة لا تسقط النهوة إلا بفدية يرضى بها الناهي، وإلا فتعنس ابنة العم. لم يحزن عصفور ذلك اليوم لخسرانه ابنة عمه الكحيلة، ولا فكر بنهوتها، بل لاكتمال صعلكته، فلا العشيرة تريد عشيرته ولا الأقارب يريدون قربه.

بات والداه تلك الليلة في بيت عصفور، للتسرية عن نفسه، وفي الصباح غلب الحزن عليه فقصد علوة عواد. لاحظ تاجر الحبوب اكتئابه فألح عليه في معرفة الداعي، فصارحه عصفور. علق عواد:

- لا تزعل! هم الخاسرون.

- هذا من حسن ظنك عمي عواد! الخسارة كبيرة، أولها العشيرة والآن الأهل. ما ظل لي غير الأب والأم.

ربت عواد على يد عصفور:

- نسيتني يا عصفور!

أجاب عصفور بنبرة اعتذار:

- والله والنعم أنت عمي وسندي ولن أنسى أفضالك علي أبداً.
- أنت مستحق ومن يعرفك خير المعرفة يقدرك ويحبك.

سكت عواد لثواني ثم أضاف:

- تريد تزوج. أنا عندي بنات ولو تريد أزوجك.

لم يتردد عصفور في الاستجابة:

- أتشرف عمي وإذا تقبل أحضر أنا ووالدي ووالدتي لزيارتكم الليلة.
- أهلاً وسهلاً بكم ولازم والدتك تشوف البنت قبل كل شيء.

أخبر عصفور والديه باتفاقه مع أبي عواد، فتمنيا له كل الخير. في المساء زاروا بيت عواد واختلت والدته بزوجة عواد وابنتها. صبر عصفور حتى عودتهم إلى البيت ليسأل والدته عن رأيها بابنة عواد، وابتهج لسماعه ثنائها على أدبها وجمالها وطولها وهمتها. في اليوم التالي قصدوا بيت عواد للاتفاق على المهر وموعد عقد القران والعرس.

تولى عواد الإعداد لحفلة الزفاف وأصر عصفور على تحمل تكاليفها. نصبوا السرادق في أطراف أم السرجين، واكتروا الكراسي والسجاد من النجف، وكلفوا صاحب المطعم بإعداد وليمة العرس.

اشترى عصفور مجوهرات العرس، خلخالان بزنة نصف كيلوغرام لكل واحد، وقلائد من ذهب وليرات إنكليزية من الذهب الخالص، ومعاضد وأسورة وخواتم مرصعة. استكثرت والدته المجوهرات وثمنها، فأرضاها بقلادة وأسورة ذهبية ثقيلة.

وافق مكتب كهرباء أم السرجين على تزويد سرادق العرس بالكهرباء، وتبين بأنها غير كافية لإضاءة كافة المصابيح والمراوح ومكيفات الهواء، فسارع عصفور لشراء مولد. تندر مدعوون جاؤوا من جهة الديوانية بأنهم شاهدوا تلألأ مصابيح العرس من بعد، وذكرتهم بشارع أبو نؤاس في بغداد. أقارب عواد كثر وأصدقاؤه منتشرون في كل أنحاء المنطقة، وكلهم لبوا الدعوة. سمع البعض منهم بعصفور أبي السّدّ ومهارته في بناء السّدّود المؤقتة وإصلاح مكائن الزراعة وطريقته المبتكرة في زراعة الأرز. لم يحضر أعمام وأخوال عصفور حفلة الزفاف، لكنهم أرسلوا أحد أولادهم لمشاهدة الحفل من على كثب وعاد لهم بوصف مفصل، أدخل الحزن والحسرة في قلوبهم وهم يستمعون ويتخيلون في أذهانهم قدر الاستطاعة كثرة المدعويين والأنوار التي أحالت الليل نهاراً والزينة وصواني أصناف الطعام، وكان الأشد على نفوسهم صورة عصفور العريس الفرح الذي تمنوه لبناتهم ولولا خوفهم من الشيخ ومن نبذ العشيرة لهم لكان من نصيب واحدة منهن.

بعد إلحاح اقتنع عباس بحضور حفل الزواج. حضر آخر المدعويين، ودخل مع الندل المنهمكين في توزيع أنواع الشربت والعصائر، وجلس في زاوية بعيدة عن الأنظار. أراد عباس تعريفه بعواد فاعتذر، وبعدها بقليل غادر من دون تناول العشاء.

أقيمت حفلة النساء في بيت عصفور. باستثناء والدة عصفور كان بقية المدعوات زوجات وبنات أقارب وأصدقاء عواد. أصرت أم العروس على تصدر أم عصفور المجلس، وجلست هي بجانبها لتعرفها على المدعوات. لأول مرة في حياتها شعرت أم عصفور بأهميتها، وشكرت ربها على عصفور الذي رفع رأس أبويه، وتمنت لو تجتمع بنساء أقارب جبر لتصف لهن حفلة العرس وتشاهد الحسرة والحسد في عيونهن.

لم تبالغ أم عصفور في وصفها لنجلاء، زوجة عصفور. أسمها غير معروف في قريته. سألت والدتها عن معناه، ونقلته لابنها. علمتها قارءة عزاء القراءة والكتابة، وتقضي نهارها في مساعدة والدتها وقراءة الكتب. قبل كل سفرة لوالدها إلى العاصمة والمدن القريبة لا تتوقع منه هدية مثل أخواتها، قطعة مجوهرات أو قماش، وأفضل هدية تفرحها بعض الكتب.

سافر عصفور ونجلاء إلى النجف، وسيقضيان فيه أسبوعاً، لتتوثق المعرفة بينهما، هكذا قال عواد، بعيداً عن الأهل والجيران الفضوليين. سبقها عصفور لتأجير بيت مفروش وتوظيف خادمة وصبياً للتسوق. بعد أسبوع سألها إن كانت توافق على تمديد بقاءهما أسبوعاً آخر، فوافقت على استحياء. جالا على أسواق المدينة المكتظة بالبضائع الكثيرة والمتنوعة، لا تقارن بأسواق أم السرجين المتواضعة. بعد عودتهما سيأتي الاهل والجيران للتهنئة بالسلامة، ولا بد للمسافر بحقيبة إضافية لملئها بالهدايا للمستقبلين، ولو ترب صلاة ومسابح.

يقصد سكان أم السرجين المدن القريبة لشراء ما لا يجدونه في اسواقهم، وهم أجدر بالأرباح التي يجنيها تجار وحانوتي تلك المدن،

وصمم عصفور على تحقيق ذلك. استأجر دكاناً في وسط السوق، واتفق مع مالكه على شراءه بعد عام. اكترى شاحنة قديمة من مخلفات جيش الاحتلال البريطاني، يسميها المحليون بالقجمة، أي الفطساء، بسبب تكوينها المميز، واصطحب معه أحد أمهر صبيان المقهى، وفي النجف مرّ على تجار الجملة واشترى منهم أنواعاً من البضائع غير المتوفرة في بلدته، وعاد بها ليعرضها في دكانته المستأجرة. بعد أسبوع نفذت البضاعة فكرر الزيارة، وفي نهاية الشهر الأول كان العامل في المقهى قد تعلم صنعة الشراء، فأوكل عصفور له المهمة. شجع نجاح الفكرة عصفور على توسعة معرض البضاعة وشراء أنواعاً أخرى منها، فازدادت أرباحه.

كانت هدية عصفور لعباس بمناسبة عودته من النجف مجموعة من الكتب الصادرة مؤخراً. اختارها بعناية ومعرفة سابقة بذوق عباس في الكتب. شكره بحرارة وسارع لتصفحها وصفّها على رّفّ قرب سريره. خاطبه عصفور:

- لن أغادر اليوم غرفتك حتى أعرف بالتفصيل سبب ختلتك في الغرفة طيلة الوقت.

ابتسم عباس:

- اترك الموضوع يا أخي وحدثني عن مشاهداتك. كنت أتمنى زيارة المدينة وكل مدن بلدنا لكن...

ولم يكمل.

- هذي اللكن أريد محوها نهائياً.

استمر الجدال بينهما حتى لان عباس ورضخ لإصرار عصفور وأخبره بأنه مطلوب في قضية ثأر قبلية. شاهد عباس ملامح التعجب في وجه عصفور فسارع لتبرئة نفسه:

- لست القاتل ولم أتعد على أحد حتى اليوم. ابن عمي قتل رجلاً أهان عائلته وهرب إلى مكان مجهول، واختارتني عائلة القتيل هدفاً لثأرها. تخفيت حتى لا أقتل وتبدأ سلسلة من الثأر والثأر المتبادل.
- هذا ظلم، وما ذنبك أنت؟
- أنت تعرف عادات القبائل.
- ألا يرضون بدّية؟
- طلبوا مبلغاً كبيراً، لا طاقة لعائلتي على توفيره، وتخلّت العشيرة عنا.

كأن عباس بانتظار فرصة للبوح بسر عزلته. حكى لعصفور كل ما أراد سماعه عن محنته، وقبل مغادرته ناوله الكرّاس المخبئ تحت فراشه ليقرأه متى ما شاء.

- لم تعد لي أسرار أخبئها عنك، وبعد قراءة الكرّاس إذا شئت ستعرف المزيد.

قرأه في نفس اليوم، ونوى على السفر في الغد.

وجد سيارة الأجرة بانتظاره عند مدخل المقهى. طلب من معاونيه تحميل الأكياس والصناديق في صندوق السيارة. بلغا بلدة عجف قرابة الظهر، منها انحدر في قارب إلى قرية عشيرة عباس. ساعده الملاح في نقل الأكياس عند مدخل مضيف الشيخ. أخرجت الجلبة الشيخ وعدداً من أتباعه ليشاهدوا عصفور بجانب أكياس السكر

وصناديق الشاي. لاحظ عصفور ملابس الشيخ الرثة وعلامات البؤس على أتباعه الذين تخلقوا حول بضاعته. مسّ أحدهم بإصبعه كيس سكر ودسه في فمه، فأشرق وجهه بابتسامة سرعان ما اختفت وحلّ محلها شقاء قديم. جال عصفور ببصره في الأرض المحيطة بالمضيف فلم يشاهد نبتة زرع واحدة وتذكر شكوى عباس من خذلان عشيرته، فكيف بمن لا يجد قوت عياله تدبير مبلغ الدّية.

بعد ثلاثة فناجين من القهوة المرة أطلع عصفور الشيخ على غرضه من الزيارة. سأله الشيخ:

- هل أنت قريب عباس؟
- لا!
- ما سبب تبرعك بمبلغ الدّية؟
- لأنه مظلوم.
- هل وعدك بتسديد المبلغ؟
- لا! أصلاً ليس لديه علم بوجودي هنا ولأي غرض.

أطال الشيخ النظر إليه متعجباً، أطرق وكأنه يفكر بسبب آخر معقول لشهامة عصفور.

- أنت إنسان طيب وشهم والله يجزيك الخير. أنا الساعة سأرسل وكيلي لمفاتحة أهل القتيل بالموضوع وإذا كانوا على رأيهم السابق نتوكل ونتوجه غداً لتسليم المبلغ وأخذ الضمان.

نادى الشيخ على قهوجي المضيف ليعد لهم الشاي.

- حلّت البركة يا أستاذ عصفور.
- البركة بكم شيخنا. أردت أسالك إذا تسمح لي عن سبب بوار أرضكم.

تنهد الشيخ:

- شطنا قليل الماء ولو كانت لدينا مضخة لزرعنا، لكن مثلما تشوف. بصراحة ما عندي فلوس لشراء مضخة. أرضنا قليلة وما تكفي للجماعة.
- حاولت تقترض.

ابتسامة الشيخ مريرة.

- مضطر وحاولت. رحت لواحد مرابي وطلبت منه المبلغ لشراء مضخة فقبل، بشروط، أصعبها أراد أرض العشيرة ضمانة فلو ما سددت يأخذها.
- هذا أكيد...

قاطعه الشيخ:

- أكيد. أكيد. وأردف بصوت أخن مقلداً المرابي: حجي! لا تخاف. أنت لست أول واحد يتدين بضمان أرضه. تزرع وتحصد وتدفع ما عليك وأبوك الله يرحمه.
- الله لا يرحم المرابي لا هو ولا أبوه.
- أزيدك علماً. أراد فائدة عشرين بالمية كل شهر. يعني رِّبا محرّم ومقامرة. إذا دفعت يربح وإذا خسرت أخسر كل شي وأصير فلاح عنده. وقع أحد الشيوخ في مصيدته، رهن أرضه عند المرابي وقبل أيام من استيلاء المرابي على الأرض تدخل ابن عمه ودفع الدين. تقول حق القرابة، لا مع الأسف. كان الثمن تغيير الشيخ المديون ولاءه السياسي من جماعة الباشا إلى جماعة الخال.

واتت عصفور فكرة:

- شيخنا! ما رأيك لو أحضرت لك مضخة قوية ونصبتها حتى تلحق تزرعون هذا الموسم.

دفع الشيخ بعقاله إلى قمة رأسه وأمعن النظر في عصفور:

- قل لي أول شيء أنت عصفور أبو السّدّ أم غيره.

ضحك عصفور:

- نعم أنا هذا هو.
- قالوا تبيع وتصلح مضخات هذه الأيام. يا ليت تبيعنا مضخة لكن بأي شروط. أكيد ليس بشروط المُخنخِن.
- أعوذ بالله من الرّبا. أبيعكم مضخة بسعر التكلفة، وتسددون المبلغ على راحتكم متى ما توفرت فلوس زائدة. وهذي أكياس الشكر وصناديق الشاي هدية مني لكم وأنا الممنون.

نهض الشيخ وقبل عباس على رأسه.

- جئت يا عصفور ومعك شكبان فَرَج، واحد لعباس والبقية لعشيرته.

بات عصفور ليلته في المضيف، وفي الصباح توجه مع الشيخ وجماعة من أعيان القبيلة إلى عائلة القتيل، ودفع عباس الدّية وبصم عم القتيل على ورقة استلام الدّية واخلاء طرف عباس من الثأر.

عاد عصفور في نفس اليوم إلى أم السرجين، وروى لنجلاء تفاصيل زيارته لعشيرة عباس ودفعه الدّية. سقطت دمعة من عين نجلاء على خدها، مسحتها بظهر كفها وأمسكت بيده ثم انحنت لتقبّلها، فسحبها وقبّل رأسها.

- لم أسمع بشهامة أحد مثلك.

سارع عصفور في اليوم التالي لإرسال مضخة ماء مع مساعده الإيراني وأحد العمال لإيصالها إلى الشيخ في قرية فعك ونصبها وتشغيلها، وعادا بعد يومين ليصفا لعصفور احتفال الشيخ وعشيرته بالمضخة وتكريمهم لهما.

كان عباس منهمكاً في ترتيب غرفته في النزل. وقف عصفور عند الباب وخاطبه:

- مبروك! براءة وإفراج.

التفت عباس ونظر إلى عصفور متعجباً.

- استلموا الدّية وأخلوا طرفك من المسؤولية عن دم ابنهم.

لم تتحمل ساقي عباس المفاجأة فجلس على طرف السرير. بعد قليل قام واحتضن عصفور. أسند رأسه على كتف عصفور ولم يرفعه حتى توقف دمعه.

- لا أعرف كيف أشكرك ولا كيف سأرد جميلك. سيبقى في رقبتي حتى الموت.
- يا أخي! لا تبالغ وتكبر الموضوع. حياتك لا تقيم بالفلوس والمهم راحة بالك وخروجك من هذه الغرفة. قم لنخرج ونتغدى في المطعم وتخبرهم بانك لا تحتاج لتناول الطعام في الغرفة بعد اليوم.

وجدا صاحب النزل أبا حصوة عند الباب الخارجي.

- إلى أين أستاذ عباس؟ بعدها الدنيا نهار.
- فرجت أخي أبو حصوة! فرجت.
- الله يفرج عنا جميعاً.

في السنة التي قضاها في النزل قضى عباس نهاره في الغرفة المعتمة التي لا ترى النور إلا من كوة قريبة من السقف تطل على جدار. في بعض الليالي تشتد عليه الوحدة وانقباض النفس فيتلثم

ويخرج إلى الشارع. يمشي خطوات قليلة ملتفتاً يميناً وشمالاً. من يراه يظنه لصاً يترصد. ثم يعود إلى غرفته. أحس به أبو حصوة في إحدى الليالي وراقبه من فتحة صغيرة في باب غرفته القريبة من مدخل النزل.

مشيا سوية في شوارع وأسواق أم السرجين. أصر عصفور على مرافقته. عرجا على محل بيع وتصليح المضخات. عرفه عصفور على العاملين في المحل، أبدى عباس اهتماماً بأنواع المضخات وقطع الغيار. توقف عباس عند مدخل دكاكين السوق، ليتصفح البضاعة المعروضة في واجهاتها، واجتذب وقوفهم المطول أمام دكاكينهم انتباه أصحابها أو باعتها فخرجوا للسلام ودعوتهما لزيارة الدكان. عصفور معروف لديهم لكن رفيقه غريب لم يروه في بلدتهم من قبل، وربما افترضوا بأن الغريب يبحث عن بضاعة. حرص عباس على مصافحة كل واحد منهم والتعريف بنفسه. مرّا بجانب السراي. برز وجه الشرطي جلاب المجدّور من خلف الباب الخشبي الضخم. نظر بحقد ظاهر على عصفور وصاحبه، شاهده عباس فسأل عصفور عنه، فحكى له عن تعرض جلاب له مرتين، ولولا عواد لنهبوا أمواله ولفقوا له تهمة والحبس لمدة طويلة.

بعد انتهاء الجولة تغديا في المطعم وشربا الشاي في مقهى عصفور. استبعد عباس الذهاب إلى قريته ولقاء عائلته، في الوقت الحاضر على الأقل. وينوي الاستمرار في السكن في نزل أبي حصوة، وبعد إلحاح وافق على الانتقال إلى الشِقة الصغيرة فوق مقهى عصفور. وجد عباس الشِقة جاهزة للسكن وأكثر ما أحب فيها نافذتها العريضة المطلة على الشارع. تركه عصفور ليرتاح على أن يفكرا بعمل مناسب لعباس في الغد.

وجده عصفور في المقهى يحتسي الليمون الحامض ويراقب المارة. أخبره عباس بأنه لأول مرة منذ سنتين نام طيلة الليل، ولم يفق مراراً كعادته، ليتفحص ظلام الغرفة ويتأكد من خلوها من أحد غيره، فقد يكون من عائلة القتيل حضر ليذبحه.

- طمرنا الماضي وعلينا بالحاضر والمستقبل. قل لي هل فكرت بعمل أو وظيفة مناسبة تشغل وقتك وتنتفع منها.
- لا! تعرف أني ناجح من الصف الثاني في كلية القانون وبودي إكمال دراستي لكن المسألة ليست بالهينة، ويمكن شطبوا إسمي من سجل الطلاب وعلي البدء من أول صف.
- عندك معرفة بالقانون ويمكن تفيدك في إيجاد عمل.
- تقصد وظيفة بالحكومة؟ يعني كاتب عدل أو حتى مجرد كاتب في محكمة؟ ولا حتى بالحلم. أخي عصفور هذي وظائف ما تتحصل إلا بواسطة، وأنا من يتوسط لي حتى أهلي تخلوا عني، ومثلي مثل المنبوذ في الهند، أو ليش نروح بعيد، أخوك صعلوك من أيام الجاهلية.
- بسيطة! مثلي مثلك.
- والعمل؟

أطرق عصفور قليلاً ثم انتبه:

- أخاف أن تزعل من اقتراحي. هو مجرد اقتراح، والقرار عندك وحدك.
- قول أخي عصفور وأعطيك الأمان.

ضحكا طويلاً.

- ما رأيك بوظيفة كاتب عرائض؟

- دخيلك! يعني مثل هؤلاء الطفيليين المتربصين عند باب المحكمة. يستغلون المساكين الفقراء الذين لا يمتلكون نقوداً كافية للاستعانة بمحامي أو رشوة القاضي فيخدعونهم ويمنونهم، ويسلبونهم دراهمهم مقابل عريضة مليئة بالأخطاء القانونية.

انتظر عصفور انتهاء عباس من اعتراضه ليقول:

- لا يا أخي. لا تحتاج لمكتب وفوقه مظلة بباب المحكمة ونظارة سميكة. انظر هذا الدكان المجاور للمقهى. تعال معي أرجوك حتى ترى بنفسك.

قام عصفور وتبعه عباس. أخرج عصفور رزمة مفاتيح من جيب ثوبه وفتح باب الدكان.

- تفضل أخي عباس.

أجال عباس ببصره في الدكان الخالي من الأثاث.

- إذا وافقت. نأثث المكتب ونضع لوحة عند المدخل مدون عليها بخط عريض كاتب عرائض واسمك الكريم.
- وكم أستوفي من كتابة العريضة؟
- مبلغ رمزي فقط حسب قدرة الشخص. درهم، عشر فلوس أو حتى مجاناً، وليس أكثر من درهم.
- قليل! لن يكفي لدفع أجرة الدكان ولا حتى ما أدفعه لأبي حصوة والمطعم.
- أولاً أنت لست مجرد كاتب عرائض أو عرضحال بل مستشار قانوني والعريضة هي نتيجة الاستشارة. وستقبض راتباً شهرياً.
- من أين؟

- مني. أنا رجل ظلمتني القبيلة وحتى الأهل مثلك وأمثالنا كثيرون ونريد نساعدهم قدر الإمكان لو أرادوا اللجوء للقضاء والإدارة الحكومية. بدون مشورة من يعرف بالقوانين ستضيع حقوق مظلومين.
- لكن ستضيع عليك فرصة الاستفادة من الدكان لو ملئته بالبضاعة وحتى لو أجرته على الأقل.
- الله رزقني ولا بد أن أرد بعضه للناس.
- أنا حاضر أنت تفصل وأنا ألبس كما يقول المثل.
- عظيم. هنا في الخلف سنضع رفوفاً للكتب ونضع عليها كتب القانون.

بعد سنتين

تأخر حمل نجلاء. سمعت بطبيبة نسائية بارعة في العاصمة فترّجت من عصفور عرضها على الطبية. حاول عصفور ثنيها عن ذلك. قال لها بأن العديد من الزوجات يتأخر حملهن لسنين ثم يلدن سنة بعد أخرى، لكنها أصرت فوافق. سافرا سوية إلى العاصمة وسكنا في بيت مفروش بالقرب من مرقدي الإمامين. بانتظار موعد الكشف أراد عصفور استئجار سيارة أجرة لاستعمالها في مشاهدة أسواق وأحياء المدينة لكنها فضّلت البقاء في غرفتها لأن فكرها منشغل بما ستسمعه من الطبيبة. بعد الكشف خرجت الطبية لتخبر عصفور بأن زوجته عقيمة ولن تنجب ولا يوجد في وقتها علاج لذلك. طلب عصفور منها كتمان ذلك عن زوجته. كان حزن عصفور ذلك اليوم مضاعفاً، ثلاثة أرباعه على زوجته التي حرمت من الأمومة وربعه على نفسه المقدر لها بدون ذرية.

كذّب عصفور على نجلاء. قال لها بأن الطبيبة طمأنته على حالتها وبأنها ستنجب في الوقت المناسب. وليطرد أي شكوك في عقلها أخبرها في اليوم التالي بأنه سيخرج للبحث عن مدارس لأبنائهما أفضل من المدارس الحكومية. صدقها القول. خرج في الصباح الباكر وسأل فدلّوه على مدرسة تحمل اسم صاحبها. زار المدرسة وطلب مقابلة مديرتها. أخبرها بأنه يبحث عن أحسن المدارس في البلد. أنشأت المدرسة عائلة لبنانية منذ سنين. يقبل الأثرياء من سكان المدن وشيوخ القبائل على تسجيل أبنائهم فيها ودفع أقساطها الباهظة. صدف وجود معلمتين في قاعة قريبة. عرّفته المديرة بهما: الست اسطفان المسيحية والست راحيل اليهودية. انقبضت نفس

عصفور لمرأى الخيزرانة بيد اليهودية والمسطرة الخشبية العريضة بيد المسيحية. عرف بعد حين بانتحار ابنة مالك ومدير المدرسة، وقال لزوجته بأن الأب المدير الذي يفشل في تربية ابنته لا تصلح مدرسته لتعليم وتربية أولاد وبنات الغير، وليس بأفضل منها مدرسة المبشرين المسيحيين، فيها يؤدون صلوات دينهم يومياً عند بدء الدراسة، ويشارك الطلاب المسلمون بالوقوف معهم.

بعد خروجه من المدرسة سار في الشارع بحثاً عن متجر لبيع الكتب، فوجد بعد قليل حاجزاً من الشرطة منعوه من المشي في الشارع فعاد. عند مفترق الشارع مع شارع عريض آخر تناهى إلى سمعه هدير أصوات. توقف لينصت. ظهرت مقدمة مظاهرة كبيرة تتصدرها قماشة عريضة كتب عليها الموت للصهاينة المحتلين. انضم عصفور للمظاهرة، وهتف بأعلى صوته لفلسطين الحرة ولعن الاستعمار البريطاني. شبك متظاهرون أيديهم بيدي عصفور واستمروا في السير نحو شارع العسدون حيث وقف الشرطة المدججون بالبنادق والهراوات. لم يتوقف المتظاهرون رافضين الامتثال لأوامر ضابط شرطة يحمل مكبراً للصوت بالتفرق. هاجم الشرطة أول صف من المظاهرة بالهراوات. تلقى عصفور ضربة على كتفه، فرفع يديه ليتقي ضربة على رأسه. فارت أعصاب عصفور، اختطف الهراوة من يد الشرطي الهزيل وأمسك به ورفعه قليلاً وألقاه على الإسفلت فصرخ الشرطي من الألم. شجع سلوك عصفور بقية المتظاهرين على التصدي للشرطة غير مبالين بهراواتهم، ولم تمض سوى دقائق حتى ولوا الأدبار يتقدمهم ضابط الشرطة. حمل المتظاهرون عصفور على الأكتاف، فصار يهتف بشعارات الموت للصهاينة والإنكليز ويردد المتظاهرون بعده، حتى

بلغوا جسر أم الملك، اكتظت الساحة المقابلة للجسر بالمتظاهرين الغاضبين. وقفت ثلة من الشرطة قرب تمثال لسياسي مات منتحراً واكتفت بمتابعة التجمع من دون تدخل.

بعد انفضاض المظاهرة زار عصفور صديقه عباس في غرفته بسكن الطلاب. وجده منكباً على كتب القانون. قبل سنتين ترخص عباس من عصفور ليكمل دراسته في كلية الحقوق، ونجح بتفوق في السنة الثالثة، واختبارات الصف الرابع بعد أقل من شهرين. دعاه عصفور لتناول الغداء، وذهبا سوية إلى مطعم قريب. أخبره عصفور عن مشاركته في المظاهرة وتصديه لأحد الشرطة. ضحك عباس حتى خرج عصير البرتقال من منخريه. بعد انتهاء الاختبارات سيعود عباس إلى أم السرجين وعمله كمحامي ومستشار حقوقي في مكتبه بدكان عصفور.

أثناء توجهه إلى علاوي الحيلة صباح اليوم التالي مرّ عصفور بكشك لبائع جرائد. توسطت الصفحة الأولى من جريدة الميزان صورة كبيرة للمظاهرة. خمّن عصفور بأنها المظاهرة المؤيدة لفلسطين، التي شارك فيها بالأمس. بينت الصورة وعن قرب وجه عصفور مرفوعاً على أكتاف متظاهرين ورافعاً يديه ليحث البقية على ترديد الهتافات. اشترى عدة نسخ من الجريدة وجرائد أخرى واكترى سيارة أجرة إلى أم السرجين.

استوقف عصفور أحد سكنة بلدته، وقد يكون شاهده في المقهى، لكنه لا يعرفه بالاسم. سلّم عليه الرجل بحرارة. تكرّر الحدث عدة مرات قبل وصوله إلى بيته. كانوا يكتفون عادة بالسلام ورفع اليد من دون مصافحة أو ابتسامات عريضة والسؤال عن الصحة، لكنهم في ذلك اليوم تصرفوا بشكل مستغرب، وود لو يعرف السبب،

فهل حلت معجزة وأصبح سكان بلدته أكثر وداً؟ بطل العجب عند أول شارع السوق عندما رأى أحد المرحبين به حاملاً إصدار الأمس من جريدة الميزان. حملها الرجل عالياً ليراها عصفور وجمع من المارة. أوقفهم الفضول. خاطبهم الرجل:

- هذا الأستاذ عصفور فوق هامات المتظاهرين من أجل فلسطين.

تأبط الرجل الجريدة، عندئذ تذكر عصفور اسمه، جبار، وبدأ بالتصفيق، وقلده بقية المتحلقين. استمر التصفيق والربت على كتفي عصفور. اجتذبت الضوضاء المزيد من الفضوليين. بعضهم ترك دكانته خالية لينضم للجمع، وملاحون قفزوا من قواربهم الراسية عند الشريعة ليشاركوا في الترحيب بعصفور، وأكثرهم جهلوا السبب، فسألوا وتطوع بعض من سبقهم لبيان ذلك، فصفقوا بحرارة هم أيضاً. اكتظ مفترق طريقي الشط والسوق بالناس. عند مشاهدتهما الجمع الغفير تخوف شرطا الحراسة الواقفان أمام مدخل السراي فدلفا إلى داخل المبنى وأغلقا الباب الحديدي خلفهما وأوصداه بالسلاسل، وهرول أحدهما ليخبر المأمور بما شاهداه. في تلك الأثناء تقدم اثنان من حمالي السوق نحو عصفور وحملاه حتى استقر على كتفي أحدهما وهكذا بدأت مظاهرة مؤيدة للفلسطينيين الذين قتلهم وشردهم اليهود الصهاينة بمساعدة المستعمرين الإنكليز المسيحيين.

بسرعة ومن دون مبادرة من عصفور تحول المشهد من مصافحة إلى مظاهرة حاشدة شارك فيها معظم رجال وشباب أم السرجين. بدأت المسيرة بالتحرك في شارع السوق، وكلما مرت بدكان أغلق صاحبه بابه وأنضم للمظاهرة، وبعضهم ترك بابه مفتوحاً وأسرع

للحاق بالجمع. ردّد عصفور الهتافات من مظاهرة الأمس وردّد المتظاهرون وراءه. انحنى مصور السوق خلف آلة التصوير البدائية والتقط صورة للجمع المتحرك. وعد نفسه بتكبيرها ووضعها في صدر دكانته الصغيرة وتحتها التاريخ وسيسميها مظاهرة عصفور من أجل فلسطين.

أغلق اليهود دكاكينهم حابسين أنفسهم داخلها بانتظار انتهاء المسيرة. سارع يهودي صاحب أول دكان قريب من أول المسيرة لإغلاق دكانه والمرور على بقية اليهود ناصحاً إياهم بإغلاق دكاكينهم، ودخل آخر دكان ولم يخرج منه هو وصاحب الدكان إلا بعد حلول الظلام.

عادت المظاهرة إلى أول السوق ولم يكن حماس المتظاهرين قد خبا، وتوجهوا جنوباً على الطريق المحاذي للنهر. وجدوا الشرطة مطوقين بيوت اليهود، واصل المتظاهرون السير حتى البساتين وعادوا أدراجهم وانفضوا عند رأس الجسر.

في العادة يقطع عصفور المسافة بين مقهاه وبيته بربع ساعة، لكن في ذلك اليوم استغرق المشي حوالي الساعة، قضاها في مصافحة أصحاب الدكاكين الذين عادوا إلى أعمالهم والمارة وحتى الصغار العائدين من المدرسة الابتدائية الذين قلدوا كبارهم. وجد نجلاء واقفة خلف باب بيتهم بانتظاره. خرجت جاراتها من عندها قبل قليل بعد زيارة مفاجأة، تبارين في اخبارها بتفصيل عن عصفور الذي قاد مظاهرة من أجل فلسطين ومشى خلفه المئات من سكان البلدة، وهم ينوون تكرارها يوم الجمعة التالي ودعوة القبائل المجاورة للمشاركة فيها.

امتزجت مشاعر الافتخار بزوجها مع القلق عليه من استياء الحكومة واحتمال تعرضه للمضايقة وحتى السجن، أصاب زوجها في مشاركته بالمظاهرة وحتى تصدرها، فهي أقل الواجب بحق أخوان قتُّلوا وشردوا من ديارهم، ولو كان مقبولاً مشاركة النساء في المظاهرة لكانت في أول الصفوف. في نفس الوقت خالج نفسها الخوف عليه وعلى مصيرهم لو استهدفه الحكام الحريصون على رضا الإنكليز.

انشغل عصفور بالإعداد للمظاهرة الكبرى. أرادها أن تكون حاشدة. خط بيده مناشير تدعو القبائل والجماعات القريبة للمشاركة في المظاهرة. مرّ على ملاحي القوارب الراسية عند شاطئ البلدة، وعرض عليهم توصيل الدعوات مقابل أجرة سخية، فرضى الجميع بذلك. أبدى سائقو الأجرة استعدادهم لنقل المناشير إلى القبائل في البلدات والقرى القريبة، سلمهم عصفور الدعوات مع أجرتهم مقدماً.

لم تشهد أم السرجين وكل مناطق الجنوب مظاهرة مثل تلك التي نظمها عصفور. رفعت فيها اللافتات وتعالت فيها الهتافات، وأطلق بعض القبليين رصاص بنادقهم. أغلق الشرطة باب السراي، وصعدوا إلى سطح المبنى مع بنادقهم الآلية.

بعد انفضاض المظاهرة توجهوا نحو المطعم والمقهى لتناول الغداء. اتفق عصفور مع صاحب المطعم على طبخ غداء يكفي مئتين، ودفع له مقدماً. استعان المطعم بمجموعة من العجائز المشهود لهن بجودة طبخهن. كنسوا وغسلوا أرض الشارع من المقهى حتى المطعم، ومدّوا عليها الأسمطة التي اشتراها عصفور، وتناوب الندل وبعض المتظاهرين نقل صواني الرز واللحم ومواعين المرق.

أثناء تناول المتظاهرين الغداء اقترب من عصفور شاب وصافحه بحراره وقبّل رأسه. عرفه بنفسه. معلم في المدرسة الابتدائية. بدأ العمل مؤخراً. لم يسمع باسم بشيشو من قبل. تبين بأنه لاجئ فلسطيني.

بعد المظاهرة الكبرى بدأ يهود أم السرجين بيع ممتلكاتهم. اشترى أبو شامي شيخ عشيرة عصفور دارين وبساتين ومجرشة ومطحنة وأرضاً خالية بنى عليها قصره، وأشاع البعض بأنه اشترى حلياً ليهودية وصفوها بأنها كنز. زار حسقيل عصفور وعرض عليه شراء مقهى الشط فقبل.

عاد عصفور للتفكير بالمدارس، وتوصل إلى فكرة جريئة، فاستشار عباس فلم يعترض لكنه غير متفائل بنجاحها. قضى عصفور يومين في إعداد الورقة التي ضمنها مقترحه بإنشاء مدرسة ابتدائية وثانوية نموذجية في كل مدينة كبرى في الجنوب، يتولى ملاكو الأراضي الكبار من شيوخ العشائر والتجار تكاليف تشييدها وتشغيلها، تخصص للطلاب المبرزين من دون تفضيل لأحد، وتستوفى أجور الدراسة من عوائل أبناء الميسورين فقط، وللطلاب من العوائل الفقيرة وذات الدخل المحدود منح وإعانات لمساعدتهم على مواصلة الدراسة، ولكل مدرسة سكن داخلي للطلاب من خارج المدينة.

دعا عصفور عباس والمعلم بشيشو للغداء معه، وعرض عليهما مقترح المدرسة. بعد صمت دقائق بادر عباس لإبداء رأيه:

- نحن بحاجة لمدارس نموذجية بمناهج حديثة وطرق تدريس متطورة لكن..

سارع عصفور للاستفسار:

- لكن ماذا؟
- هل تتوقع أن يتحمس شيخ عشيرتك للفكرة ويتبرع بألف دينار أو أكثر أو حتى أقل لتمويل مشروعك.
- لا! ولا حتى مئة دينار. هذا انفتحت شهيته على الأبهة. بنى القصر واشترى السيارة الأمريكية ويمكن يطلق واحدة من زوجاته الأربعة ويتزوج فتاة بعمر بناته.
- وهل يختلف البقية عنه؟
- يعني بدلاً من قضاء ثلاثة شهور في جبل لبنان كل صيفية ألا يكفيهم شهر.
- جبل لبنان لا يشبع منه!

التفت عصفور إلى بشيشو وخاطبه:

- ما رأيك أخي بشيشو؟
- فكرة عظيمة لو أمكن تنفيذها، وأهم شيء يتوفر فيها الانضباط وحسن السلوك.

ابتسم عباس:

- يبدو عندك مشاكل مع طلابك؟
- وقاحة عالية يا أخي. في بيوتهم فئران وعلي أسود.
- عاملهم كبقية المعلمين.

بدا الامتعاض على وجه بشيشو:

- سلاح بقية المعلمين الخيزرانات. أنا أربي بشر لا حيوانات.

تفلسف عباس:

- الإنسان حيوان مشاغب.
- تصوروا إخوان. كل يوم تقريباً أسمع أحدهم ينادي بسبس بسبس. أطلب منه السكوت فيرد علي أستاذ: شفت بزونة في الصف وأخاف تخرمشني.

ضحك عباس وكتم عصفور ابتسامة:

- اضحك عباس! من يده بالنار ليس كمن يده بالماء.

رد عباس مستنكراً:

- لا تبالغ أخي بشيشو! أنتم الفلسطينيون مظلومون أينما كنتم.
- ذاك الأسبوع تآمروا علي. أحضروا عشرة أو أكثر من القطط السائبة وأطلقوها في الصف حتى وصل مواؤها إلى غرفة المدير فجاء ليستكشف وعاقب الجميع ولامني لأني لا أحسن ضبط طلاب صفي. الخلاصة أخي عصفور نفذ فكرتك ولا يهمك عباس وشكوكه الوجودية.

أرسل عصفور مقترحه إلى رؤساء العشائر في منطقة أم السرجين وبعض رجال الدين، وطلب من عباس الاتصال بكافة الجرائد لنشر إعلان عنه ودفع الرسوم المطلوبة. خمسة فقط أيدوا مقترح عصفور من دون التزام بالمشاركة في تمويلها. لو عاش أبو شامي ليشهد ارتداد ابنه المدلّل خريج المدارس الأجنبية عن دينه واتهام أبيه بممارسة الجنس مع زوجاته الأربعة سوية لتأسّف على معارضته لمقترح عصفور ولمات هماً.

شكى عصفور لنجلاء عدم اكتراث الناس بتطوير مجتمعهم، فهو وأمثاله نشاز على المجموع، ولا بد أن هناك آخرون فكروا مثله، وأصابهم الإحباط حتى اليأس فانصرفوا إلى الاهتمام بشؤونهم

الخاصة. سألها عن تصورها لردود فعل من قرأ إعلانه. حاولت زوجته التسرية عن نفسه:

- أنت تعرف أحسن مني نظرة الناس للأمور وأحكامهم عليها. تجتذبهم المظاهر والأمور الثانوية فينسوا جوهر المسألة.
- ما الذي شدههم عن هذا الموضوع الهام؟ وهل هناك ما هو أهم من مستقبل الأجيال، فهل يرضون بأن يربي أبناءهم معلمون بمعارف قليلة وبطرق تعليم قديمة أو يرسلونهم إلى من يريد تغريبهم عن مجتمعهم وقيمه وعقيدته؟
- أظنهم قرأوا بأنك من سكان أم السرجين فراحوا يتندرون على الاسم.
- لا استبعد أن يكونوا بهذه السطحية كما أنهم غير مستعدين لصرف نقودهم على المشروع.
- الفلوس إذا لم تجلب الفلوس أو المتعة خسارة بالنسبة للكثيرين.
- مع ذلك أنت نبهتيني يا حبيبة القلب لاسم بلدتنا الكريه وشكراً لك يا نبيهة.
- أهل الجنوب يعرفون معنى الاسم لكن الحضر لا يعرفونه وربما سألوا فعرفوا وبالطبع سخروا منا.
- غير معقول ان أهلنا اختاروا هذا الاسم ولا أستبعد أن يكون الأتراك العثمانيون وراءه تحقيراً لنا ولا تنسين هذه البلدة والمنطقة شافوا منها الثورات والويل.
- زمان العصملي طاعون وجدري وتخلف وضرائب. الله لا يردهم.
- لكن واجب نطالب تغيير اسم البلدة وهذا مشروعي القادم.

لم يتأخر عصفور في مشروع تغيير اسم البلدة. شجعه عواد على تنفيذه، وتوقع نجاحه، أما عباس فكان متشائماً كعادته لأن قارب مجتمعنا وحكومتنا واقف عند الشاطئ ولو تحرك فقد يغرق فالأسلم السكون.

أعد عصفور بالتعاون مع عباس وبشيشو عريضة إلى وزارة الداخلية لطلب تغيير اسم البلدة. بعد مراجعات عديدة أبلغوه بأن طلبه وجيه لكن تقرر تأجيل البت فيه لعدم وجود ميزانية لتغطية تكاليف تغيير الاسم في الخرائط والكتب الدراسية والوثائق الرسمية وسجلات الأحوال المدنية والهويات الشخصية.

التغوط عند شاطئ النهر

حل الصيف على أم السرجين. ينسل اليافعون من بيوتهم للسباحة في النهر بسراويلهم الداخلية، والبنات الصغار بكامل ملابسهن. يزداد الطلب على قوالب الثلج، يصنعها أحد أقارب شيخ عشيرة عصفور، يفضل الشباب المشروبات الباردة على الشاي الثقيل المعتاد، يشترون الصودا والسيفون المثلجين من الباعة المتجولين، ويشربونها بعيداً عن الأعين، لأنها مشروبات الصغار. في المساء يجول صهريج الماء الحكومي ليرش الشوارع والطرق فتتبخر حرارة النهار منها.

فكر عصفور بالاستفادة من الرصيف الجديد على الجهة المقابلة للسراي والموازي لجرف النهر. تنخفض الحرارة بعد الغروب وأقلها بالقرب من النهر. حصل على موافقة من مأمور الشرطة على وضع كراسي ومناضد على الرصيف في المساء لاستقبال الزبائن. يبدأ التحضير برش الماء على الرصيف ثم تنقل الكراسي والمناضد من المخزن. حاول عصفور اقناع المسؤولين بإنارة الرصيف على حسابه فرفضوا. اشترى فوانيس حديثة لتنصب بعد حلول المساء على طول الرصيف، بعيداً عن الجالسين لئلا تزعجهم الحشرات الطائرة التي تجتذبها الأضواء. قبل توافد الزبائن ينصب النُدُل المذياع الكبير المزود ببطارية قوية على منضدة عالية ليذيع تلاوة للقرآن الكريم تليها نشرة أخبار، ويسود الصمت بين التجار والشيوخ الذين يرتادون مقهى عصفور الشاطئ عندما يصل المذيع إلى بيان أسعار الحبوب، وينتظرون سعر أرز عنبر أم السرجين، فهي المرة الوحيدة التي يذكر

فيها اسم بلدتهم، وان كان قبيحاً، لأنهم يتذمرون من كونها منكرة، وما أشهرها إلا أرزهم الأجود بين كل نواع الأرز.

دشّن عصفور الشطر النهري من المقهى بجولة بصحبة عباس. هنّأه صاحبه على فكرته الناجحة:

- أحسنت عصفور! بعد ساعة من المغيب سيهب نسيم بارد من النهر ومن سيجرّبه مرة واحدة سيأتي كل مساء ليتمتع بالبرودة ومنظر المياه الجارية العاكسة لأنوار المصابيح كأنها بطون حيات كما يصفها الشاعر الشعبي.

توقف عصفور وبدا وكأنه لم يسمع كلمة من مديح عباس وراح يتشمم الهواء.

- ما بالك شممت رائحة سمك؟ شبوط أم بني؟
- لا شبوط ولا أبو الزريج وأكيد ليست رائحة سمك الجري. هذه رائحة تكرم خراء.
- معقول! قل غيرها.
- ما في غيرها.
- أنا لا أشم أي رائحة.
- حاسة الشم لدي قوية. من أين تأتي الرائحة الكريهة؟ ليست من النهر أكيد ولا توجد في أم السرجين مجاري تصب في النهر، ولا حتى بعد مئة عام.
- أنت مقل. قل ألف عام وربما أكثر. يمكن اسم بلدتنا هو مصدر الرائحة؟
- بالجد! لن أطيق الجلوس في المقهى خمس دقائق مع هذه الرائحة.

- ممكن عندك حساسية قوية وغيرك مثلي لا يشمّ إلا العطور الطيبة.

سدّ عصفور أنفه بأصابعه ومشى مبتعداً ثم توقف فجأة. خنخن:

- عرفت المصدر. كل يوم عشرات، كبار وصغار، ينزلون على الجرف قرب الماء ويخرون ويبقى خراهم تحت الشمس حتى تطلع روائحه وفي الأمسية تفوح الروائح. ما حسبت لهذه القضية. يا ويلي راح كل تعبي وفلوسي.

حاول عباس تسريته:

- أخي عصفور لا تشيل هماً. كل مشكلة ولها حلال، وأنت أبو الحلول، من السّدّود حتى المضخات وهلم جراً.

في صباح اليوم التالي ذهب عصفور إلى دار نازح خزانات مراحيض البلدة. النازح مسيحي من بلدة تلقيف في الشمال. تعجب من طلب عصفور، وكان سيرفض خوفاً من الشرطة لولا الخمسة دنانير التي وعده بها عصفور كل شهر. اتفق معه على إتمام العمل يومياً قبل الغروب. بعد يومين من بدأ العمل اقتاده شرطي إلى السراي، وبات ليلته في التوقيف، أفرجوا عنه بكفالة عصفور، والتعهد بعدم الاقتراب من الجرف بعدها.

ازدحمت قهوة عصفور في اليوم التالي، وتأفف الندل من كثرة الزبائن الملهوفين على الجلوس قرب جرف النهر، شيوخ عشائر وأقاربهم وتجار والقاضي ومأمور الشرطة وموظفو المكاتب الحكومية. لم يشتكي أحد منهم، لكن المديح الذي سمعه عصفور من بعضهم تلك الأمسية لم ينسيه الرائحة الكريهة، وكأنها علقت

في خياشيمه أو كمنت داخل عقله، وكل نفس سحبه وجده مضمخاً بالرائحة، وكأنه دخل كنيفاً ولم يخرج.

لاحظت نجلاء انشغال بال زوجها. أخبرها بأنهم منعوا تنظيف الجرف فعادت الرائحة.

- وهل يمانعون لو غسلت الجرف بالماء.
- كيف؟
- بسيطة. اطلب من سائق مضخة البلدية توجيه خرطوم الماء إلى الجرف لغسله. دقائق وتزول الفضلات والروائح.
- فكرة ممتازة. أنت كالجناحين لهذا العصفور المسكين زوجك.

ضحكت نجلاء. تفرح لسماع اطراء زوجها لعقلها.

- لا! أنت كنت طائراً من قبل وبعد الزواج.
- طائر لكن إن شاء الله غير مطيور. يا ترى ماذا يقول أهل البلد عني وما على الشاطئ؟
- دعك من ألسنة الناس! فلا هم قرأوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولو قرأوها فلن يلتزموا بها. وأنت بالتأكيد خير منهم، وجبت لهم الخير الكثير.
- يكفي نفخاً بي. بعدين أصير نسر وأحلق بين الغيوم.
- أين تروح مني؟ أتعلق بك وتشيلني مثل السندباد والرخ.

وجد سائق صهريج الماء عند باب مبنى البلدية. كلّمه على جنب. تخوف العامل من العقوبة لو اكتشفوا الأمر. أقنعته ديناران بالمخاطرة، ووعده عصفور بتعويضه عن أي عقوبة وحتى إيجاد عمل له لو لا سمح الله طردوه.

لعشرة أيام داوم سائق الصهريج على تطهير الجرف كل يوم قبل المساء أثناء جولاته اليومية لرش الشوارع والطرق. يتظاهر بغسل الرصيف بأنبوب طويل ويمدّه قليلاً ليبلغ الشاطئ. حرص عصفور على تفقد مقهاه الصيفي للتأكد من زوال الرائحة الكريهة. يقف كل بضع خطوات ليستنشق الهواء فترتسم على وجهه ابتسامة رضا، لكن زمن الارتياح مثل كل شيء جيد في بلدته وبلاده قصير جداً. في أحد الأمسية وقبل توافد رواد المقهى سمع صوتاً غريباً من داخل النهر فاقترب من حافة الرصيف ليستكشف فلاحظ ازدياد درجة انحدار الشاطئ. انجرفت التربة بسبب قوة تيار أنبوب الرش، وسيكون من الصعب حتى على رجال أقوياء النزول بسهولة على الجرف ليصلوا قرب الماء ويقضوا حاجتهم.

زاره سائق صهريج الماء بعد العاشر من بدأ غسله للشاطئ ليبلغه بأن مدير البلدية استدعاه ووبخه ومنعه من غسل الرصيف بعد اليوم. تبين بأن أحد المارين بالبلدة في طريقه إلى المزارات أراد التبرز عند الشاطئ فما أن حط قدميه على المنحدر حتى انزلقا وتدحرج حتى سقط في الماء. تبللت ملابسه وخرج من الماء ليتسلق المنحدر فتكررت محنته، ولولا مرور أحد سكان البلدة ليساعده للبث عند أسفل المنحدر إلى حين. حمد عصفور الله لأن الزائر لم يصب بأذى. دفع لسائق الشاحنة ضعف المبلغ المتفق عليه وتوجه إلى السوق ليطلب من مكاري جلب أتربة لإعادة المنحدر إلى ما كان عليه قبل الغسل.

في صبيحة اليوم التالي توجه إلى مكتب عباس. فوجئ عباس بفكرته:

- سأطلب من مدير الناحية إنشاء دورات مياه عامة وسط البلدة.

- شاهدت المكاري ينقل حمولة عدة حمير من التراب لوضعها على المنحدر. يا أخي دعك من هذا الأمر.
- أبداً! هذه عادة قبيحة ويجب التخلص منها.
- صعب جداً تغيير عادات قومنا.

قام عصفور وبدأ بذرع أرض المكتب رواحاً ومجيئاً. توقف وربت على جبهته:

- سأستفتي رجل دين حول المسألة أولاً.
- لا تتعب نفسك!
- سأذهب الآن وسأعود بالجواب.
- تروح وترجع بالسلامة وخالي الوفاض.

بعد نصف ساعة في سيارة الأجرة وقف عند باب رجل الدين وطلب الآذن لمقابلته بشأن مسألة هامة. أدخلوه بعد انتظار. سلم وقبل يد رجل الدين وجلس بين يديه:

- مولانا! أنا صاحب مقهى على الشط ومصالح أخرى في أم السرجين وأشكو من تردد الناس يومياً إلى الشاطئ لقضاء حاجتهم، وتزعج الروائح رواد المقهى.

ابتسم رجل الدين ونظر إلى عصفور ملياً قبل أن يرد عليه:

- أفهم مشكلتك جيداً! لكن ما الحل؟

تشجع عصفور وذهب عن نفسه التوتر والتهيب في حضرة رجال الدين:

- مولانا المسألة ليست متعلقة بالمقهى فقط. هذا السلوك متكرر على طول النهر من دخوله الحدود وكل فروعه كذلك،

والنتيجة ليست في الروائح الكريهة فقط بل أيضاً الجراثيم والديدان وما تنشره من أمراض، وكما تعرفون صحة فلاحينا في الجنوب سيئة والأمراض منتشرة.

- أتفق معك، لكن ما الحل؟ لأنهم لا يجدون بديلاً يقصدون الشواطئ. إذا لم يكن هناك بديل صحي تتوفر فيه مياه فلا مجال للنهي عن هذه العادة.
- مولانا! سأقدم عريضة للحكومة لتشييد دورات مياه عامة في أم السرجين وإذا تمنعت فسأشيدها بنفسي وعلى حسابي.
- جيد! هذا عمل خير، عسى أن يحذو غيرك حذوك.

استأذن عصفور بالانصراف، وسلم على الشيخ وقبل يده وخرج.

عاد عصفور إل بلدته، والتقى بعباس ليعدا سوية عريضة إلى مدير البلدية لإنشاء دورات مياه في بلدتهم. سلّم العريضة بنفسه إلى مدير البلدية. قرأها الرجل الأربعوني وأدرجها بالرقم والتاريخ في سجل وارد إدارته، ووعد عصفور برفعها إلى الوزارة في العاصمة للموافقة وتخصيص المبالغ اللازمة لتنفيذ المشروع. راجعه عصفور بعد أربعين يوماً فأخبره بأنه لا يزال بانتظار جواب الوزارة، والأغلب سيتأخر القرار بسب استقالة الوزارة الحالية وانتظار تشكيل وزارة جديدة.

تبخر أمل عصفور بموافقة الوزارة فاشترى داراً وسط السوق بأكثر من مئة دينار، وكلف أحد المعمارين بتحويله إلى دورة مياه تكفي لعشرة في نفس الوقت، وبعد اكماله علق لوحة خشبية عريضة كتب عليها دورة مياه للرجال ورسماً لمرحاض وبجابه إبريق ماء، ليفهم المتعلم والأمي. أعد نجار عدة لوحات خشبية بنفس المعلومة وعلقت في الطرق مع اسهم تدل على مكان دورة المياه.

سألته نجلاء:

- ماذا عن السيدات؟

تلكا عصفور في الإجابة:

- أشك بأن سيدة ستقبل بدخول دورة مياه عامة وتغلق الباب وراءها. ماذا سيقول الناس عنها؟
- معك حق، حتى دورات المياه محرّمة علينا.

ضحك عصفور.

بعد أيام تفقد عصفور اللوحات الخشبية في طرق البلدة فلم يجدها. تبين بأن مدير البلدية أمر بجمعها لأنها تخالف النظام، فلا يجوز وضع لوحة أو إعلان في الطرق العامة من دون موافقة البلدية ودفع الرسوم القانونية. في صباح اليوم التالي توجه عصفور إلى مكتب البلدية لطلب وضع اللوحات ودفع الرسوم وتسوية المخالفة. وجد عباس في مكتبه مع رجل مسنّ بيده جريدة نخل يتعكز عليها. كفكف العجوز دموعه بردن ثوبه المهلهل وأشاح وجهه عن عصفور خجلاً من رؤيته لدموعه. خاطب عباس العجوز:

- عمي! لا تشيل هماً! أوعدك برفع شكوى على الشيخ وتكون النتيجة بصالحك.

قام العجوز بصعوبة. ترنح فسارع عصفور وعباس لمساعدته. شكرهما وخرج.

سأل عصفور عباس:

- ما القضية؟

بدت على عباس علامات غضب مكبوت:

- هي نفسها مكررة كل يوم. القوي يأكل الضعيف، فلا ناموس ولا رحمة. يعني غابة لا أكثر ولا أقل. طمئني؟ هل سيعيدون اللوحات؟
- خيراً تعمل شراً تلقى. دفعت غرامة المخالفة وأرضيت مدير البلدية حتى قبل. أوف! ما باليد حيلة.
- مثل ما يقولون أهلنا المعدان. سوي زين وذب بالشط!

رفع عصفور صوته محتداً:

- شطنا مسكين! يرمون فيه غائطهم وزينهم.
- لا تهتم أخي عصفور! أنت سويت ما عليك وجزاك الله خيراً.

بعد أيام سأل عصفور الشاب المكلف بمتابعة دورات المياه عن عدد المترددين عليها فأجابه بأنهم قِلّة، وبأنه اشترى أباريق عوضاً عن التي استحلها البعض.

**

أبو السينما شيخ هو الآخر، ومن عشيرته. في زمن وصف السينما باللهو المعيب كانت صفة أبي السينما مسبّة خفيفة. دفع الفضول بعض القرويين السذّج لدخولها. تحمس أحدهم لبطل الرواية الموشك على الهزيمة أمام كثرة الأعداء فانتضى أحدهم خنجره وهجم على الشاشة ومزقها قبل أن يوقفه المسؤول عن السينما واضطر أبو السينما لاستبدال الشاشة.

من لا يمتلك درهماً لدخول السينما ينتظر قدوم السينما بلاش. في كل صيفية تمر بأم السرجين شاحنة صغيرة تحمل جهاز عرض سينمائي. عند دخولها البلدة يتجمع خلفها الأطفال مصفقين حتى وقوفها أمام السراي. في أي ساعة من النهار تطرد الأمهات أطفالهن

الذكور إلى الشارع ليتفرغن لأمور بيوتهن والعناية بالأصغر منهم، فما أن يرون ما يثير الاهتمام حتى ينتشر الخبر من شارع إلى درب ومن بيت لآخر فيتجمهرون.

اكتظ الشارع المقابل للسراي بالشياب والشباب والأطفال بانتظار بدء العرض السينمائي. ارتفع صوت أجشّ من مكبر الصوت للرجل الجالس بجانب سائق الشاحنة يطلب من الجمهور التراجع إلى الخلف ليبدأ العرض. سمع عصفور الضّجة فخرج من مكتبه بجانب المقهى، وتوجه نحو السراي. قبل وصوله إلى الجمهرة كان قد قرر أمراً. شقّ طريقه نحو الصف الأول. بدأ العرض بصورة الملك في زي عسكري، بياضه خارق للعادة في أم السرجين وغيرها، بدا كشرطي مرور، ومن خلفه يرفرف العلم ويعزّف السلام الملكي. عفط أحدهم وضحك آخرون، فارتفع صوت غاضب:

- هش! سكوت! عيب!

أظهر شريط الأخبار استقبال الملك وخاله لقادة دول وافتتاح مشاريع وحضور سباق للخيل. كلما ظهرت امرأة سافرة على الشاشة ارتفعت همهمة. انتهى العرض بنصائح صحية تدعو لغلي الماء قبل شربه والامتناع عن البصاق في الطرق والمقاهي وغسل اليدين قبل تناول الطعام. اقترب عصفور من الشاشة وما ان انتهى العرض حتى رفع صوته:

- أخوان السلام عليكم. تكملة للنصائح في العرض أود التنويه بدورات المياه في السوق فهي أنظف من استعمال جرف الشط والسلام.

صاح أحدهم:

- على عنادك يا عصفور رائحون للشط!

ضحك آخرون وراحوا يرددون وراءه. مشى عصفور مبتعداً.

**

اصطف المئات من القرويين والعشرات من الغنم والبقر والجمال على الطريق المؤدية إلى أم السرجين، لا القرويون ولا الحيوانات حضروا بملأ إرادتهم. أمر الشيوخ اتباعهم فامتثلوا، وسيقت الحيوانات إلى الطريق. وقف الجميع بانتظار الموكب، لعله تأخر كثيراً أو قليلاً، لكن لا أحد يجرؤ على المسائلة ولا حتى التأفّف. في الموكب الملك وخاله ووزراء ونواب المنطقة والحاشية في زيارة قصيرة إلى أم السرجين. سيقضي الضيوف الكبار ساعات في بيت أحد النواب شقيق أبي شامي. اختاروا البيت لا لأنه قصر منيف يليق بملك وخاله، بل لقاعاته الواسعة وساحته الرحبة. تقرر أن يكون الغداء في الساحة ولو مطرت في القاعة الرئيسية.

ما أن لاح من بعيد الموكب حتى بدأ القرويون الأقرب اطلاق الرصاص من بنادقهم العتيقة، بأمر شيوخهم بالتأكيد، وانتضوا سكاكينهم الحادة لحز رقاب الحيوانات. تشبع الهواء برائحة البارود، واصطبغت جوانب الطريق بالدم المراق. بعد مرور الموكب مرّت شاحنة لجمع الذبائح ونقلها إلى مكان الطبخ بالقرب من منزل النائب.

ترجّل الملك وخاله من السيارة الفخمة، وتبعه وزراء ونواب ومسؤولين كبار تحف بهم ثلة من الحرس الملكي. وقف الملك قرب باب منزل النائب، ووجه الحراس ليسمحوا لبعض المرحبين من سكان البلدة والعشائر بالسلام عليه. سلمه أحدهم عريضة فقبلها

وناولها إلى أحد الحاشية. انتظر عصفور في صف المرحبين حتى جاء دوره. صافح الملك وخاله، وسلمه عريضة. سأله الخال:

- الاسم الكريم؟
- عصفور ابن جبر صاحب مقهى ومحل لبيع وصيانة مضخات الماء صاحب السمو.

دنا النائب من الخال وخاطبه همساً. تبسم الخال:

- يلقبونك بعصفور أبي السّدّ.
- قبل سنين سموني أبي السّدّ ومشى علي حتى اليوم.
- سأقرأ عريضتك وسنلبي طلبات إذا كانت ممكنة.
- شكراً جلالة الملك وسموك على عطفك وأتمنى لكم زيارة مريحة وموفقة.

توجه الملك وخاله إلى مدخل منزل النائب.

عاد عصفور إلى المقهى. وجد عباس بانتظاره، فحكى له عن مقابلة الملك وحديثه المقتضب مع خال الملك.

تناول عصفور غداءه في منزله مع زوجته وولديه. اعتاد على قيلولة قصيرة. ما أن وضع رأسه على الوسادة حتى سمع طرقاً شديداً على الباب. وجد وجهاً غريباً. عرفه الرجل الغريب على نفسه، أحد مساعدي مدير الديوان الملكي. أبلغه باستدعاء الملك وخاله له على وجه السرعة لأمر هام. استمهل الرجل دقائق ليخبر اهله ويرتدى ملابس لائقة، وفي دقائق أوصلتهما السيارة الفخمة إلى باب منزل النائب. قاده المساعد إلى غرفة استقبال واسعة، جلس في صدرها الملك وبجانبه الخال، أمامها منضدة وكرسي. أشار إليه المساعد بالجلوس على الكرسي. لم يغادر القلق نفس عصفور حتى أخرج خال

الملك ورقة تعرف عليها عصفور، عريضته التي اكتتبها أحسن خطاط في البلدة. خاطبه الخال:

- أستاذ عصفور. اطلعنا، جلالة الملك وأنا على عريضتك، التي احتوت على أمور هامة، وجميعها تقريباً طلبات مشروعة تستحق التلبية.

توقف ليلقى نظرة فاحصة على عصفور من دون أن تغادر وجهه ابتسامته المعهودة في صوره المعلّقة على جدران المكاتب الحكومية. أكمل:

- تغيير اسم بلدتكم. لم نكن نعرف معنى السرجين فسألنا وتعجبنا.

ضحك الملك ثم توقف واستعاد مظهره الرصين.

- أظن هذا طلب يسر، وإنشاء جسر حديث على النهر بدلاً من جسر البونتون الإنكليزي ممكن عندما تتوفر الأموال من الاتفاقية الجديدة مع شركات النفط. أيضاً تنظيم مياه النهر من خلال السّدّود المخطط بناؤها قريباً، الخ حتى نصل آخر مطلب المحير لذلك طلبنا حضورك.

غالب الملك ضحكة وخاطب عصفور:

- منع استعمال شاطئ النهر لقضاء الحاجة وإنشاء دورات مياه عامة. يا ترى ما وراء هذا الطلب. ألا ترى بأنه غريب؟

أجاب عصفور:

- بصراحة يا مولاي! أنا لي مصلحة شخصية من وراءه لكنه في نفس الوقت مصلحة عامة.

- ممكن تشرح لنا.
- قبل سنتين اشتريت مقهى من يهودي غادر، وفي الصيف أضع كراسي قرب الشط حيث تكون الحرارة أقل لكن بسبب تصرفات البعض... تزعج الروائح رواد المقهى. نصحت بدون نتيجة ولأن البعض معذورون بنيت تكرمون دورات مياه عامة ودعيت الناس لاستعمالها بدلاً من جرف النهر لكن تغيير العادات يتطلب تضافر جهود.

علق الملك:

- يعني صرفت من مالك الخاص لحل المشكلة هذا شيء تحمد عليه.

ثم التفت إلى خاله:

- صحيح الموضوع ليس بمشروع تنموي لكنه حساس والمفروض وجود دورات مياه عامة في كل مدينة وبلدة لاستعمال الناس بدلاً من جرف النهر أو الشوارع والأماكن العامة.

هز الخال رأسه موافقاً. قطع عصفور الصمت:

- قبل فترة زارني رئيس الصابئة في بلدتنا وتمنى لو أن الجميع يستعملون دورات المياه بدلاً من الشط، لأن الصابئة يغتسلون أو يسمونها يتعمّدون في مياه الشط، ويتقذرون من نفايات البشر على الجرف، والأولاد في بلدتنا ما أن يشاهدوا صابئي يغتسل في الشط حتى يقفوا له على الشاطئ ويصيحون: نجس! نجس! فيضطر لغمس جسمه في الماء مرة وأكثر.

بدت على الملك نظرة اهتمام:

- أول مرة أسمع بهذا!

كره الخال تصريح ابن أخته بجهله بطقوس الصابئة فسارع لتغيير الموضوع:

- سمعنا أيضاً عن الاستشارات القانونية المجانية التي يقدمها موظف عندك.

أجاب عصفور:

- في الحقيقة ليست مجانية تماماً. الأستاذ عباس صديقي وخريج جامعي يقدم استشارات قانونية ويعد عرائض للذين لا يمتلكون أجور محامي ورسوم الخدمة حسب القدرة، مثلاً مجاناً للنساء وعشرة فلوس للفلاح وربع دينار من الموسر.
- حتى في بلاد الغرب لا توجد خدمات قانونية مجانية.

أكمل الخال:

- وعندك مكتبة عامة بجانب المقهى.

يكره عصفور التفاخر:

- لا توجد مكتبة عامة في البلدة والشباب لا يمتلكون ثمن كتب مثل الروايات العالمية وكتب التاريخ لذلك اشتريت عدة مئات من الكتب للقراءة في المكتبة نفسها أو الاستعارة.

سأل الملك:

- وهل يعيدون الكتب؟
- نحتفظ بهوياتهم المدرسية ومن لا يعيد الكتاب نسلم الهوية للمدرسة ليتابعوا الأمر ونحرمه من استعمال المكتبة.

نظر الخال إلى الملك وأشار إلى ساعته ليحثّه على انهاء المقابلة. رفع الملك الشاب اصبعه وكأنه تلميذ في حضرة معلمه:

- لدي سؤال أخير وسننهي استجواب الأستاذ عصفور. قل لنا ما صحة ما قيل لنا عن سيرك فوق الماء؟

ابتسم عصفور:

- صاحب الجلالة. في شبابي حولت سقي يستعمل لخض الحليب هنا وربطته على قدمي وبعد عدة محاولات تمكنت من المشي على ماء الشط من ضفة إلى أخرى وبالعكس فظنت بعض القرويات بأنها معجزة وطلبنا البركة وتلبية الدعاء مني.

ضحك الملك وابتسم الخال وقاما. شكرا عصفور وسلم وانصرف.

وجد عباس بانتظاره عند باب منزل النائب. مشيا سوية نحو مكتب عباس فزال القلق عن عباس بعد سماعه ما دار في المقابلة. كانت نجلاء متلهفة لعودته من مقابلة الملك وخاله، وانهالت عليه بالأسئلة حول الملك وخاله والمقابلة.

غادر الموكب الملكي صباح اليوم التالي. تخلف مندوبو ثلاث صحف لإجراء مقابلات مع عصفور. حاول التملّص منهم لكنهم أصروا فقبل. سألوه عما دار في المقابلة فأجاب على أسئلتهم، ونشرت تفاصيل المقابلات على الصفحات الأولى من الجرائد الثلاث، فطار صيت عصفور. تسببت له المقابلة والتقارير الصحفية صداعاً، ظنّ الكثيرون أن له إذن مسموعة في القصر الملكي، فتهافت عليه طالبو الوساطة، من تعيين خريج في وزارة الخارجية إلى طلب مئات الدونمات، ومن فلاحين وحتى شيوخ عشائر، واستاء لأنه اضطر لردهم خائبين، وقلّة منهم صدقوا عذره.

جلس عصفور مع عائلته حول مائدة طعام الإفطار، وقبل أن يتناول أول لقمة سمع طرقاً شديداً على باب منزلهم. وجد والده عند الباب. قبلّ يده ورحب به. رضى الجد بالجلوس معهم والقليل من الطعام لأنه شبعان من الفطور الذي تناوله في بيته. بعد الإفطار اختلى جبر بابنه عصفور لأمر هام كما كرر عدة مرات.

بدأ جبر:

- وصل إلى علمي خبر مهم ومزعج عن خلاف بين عشيرتنا وعشيرة مجاورة ونية شيوخنا على قتال العشيرة الأخرى.
- يا ساتر! وهل الموضوع يستحق القتال وسفك الدماء.

احتدّ جبر:

- ولدي! لا يوجد ما يبرر قتال بين جارين مسلمين.
- كلامك صحيح يا أبي! ألم يتدخل عقلاء لحل الخلاف.

أخرج جبر مسبحته وصار يحركها بعصبية:

- توسط شيوخ ورجال دين ولكن من غير نتيجة.
- وما هو سبب الخلاف؟
- شيوخ عشيرتنا اشتروا قطع أرض من العشيرة الجارة وهؤلاء رفضوا تسليمها.
- يعني جماعتنا أخطأوا بشراء أرض جيرانهم والكل يعرف بأن العشيرة من دون أرض ما تسوى فلس وشيوخها لا عمل لهم. وكان لازم ما يبيعوا أرضهم.
- الظاهر أحد شيوخهم مفلس فباع الأرض.
- شيوخ آخر زمن. لعب قمار وملاهي وعنتريات. لكن كيف عرفت بنيتهم الهجوم على جيرانهم.

- سر وانفضح. كنت قاعد بجانب مضيف أبي شامي وظهري لحائط المضيف وسمعت ابي شامي يكلم شامي بالموضوع ويوصيه بكتمان السر. القدر أراد فضح سرهم وإلا كانوا هجموا وصارت المصيبة. إبني! أخاف لو تقاتلوا يروح بيها من عندنا وحتى من أهلنا وأولاد أعمامك. بعدين ترى لن تكون الأخيرة وبعدها ثارات لا تعرف متى تنتهي.
- أنا معك هذا باب شر إذا انفتح الله وحده يدري متى ينسد. تكلموا بالتفاصيل؟
- بلي! استأجروا لوري مسقوف حتى يلبدون داخله وعندما يوصلون لقرية العشيرة يخرجون ببنادقهم ورشاشاتهم ويقتلون كل واحد يلاقونه أمامهم.

احتد عصفور:

- هذا إجرام وغدر. ألا يخافون من ربهم أو حكومة؟
- لابد أن كبيرهم في بغداد أمرهم وراح يأمّنهم عند جماعته في الحكومة. والعمل يا إبني؟
- خلني أفكر بطريقة تمنع الهجوم.

تغدوا سوية وعاد جبر إلى ديرته.

في العصر زار عصفور عباس في شِقته. أخبره بنية عشيرته التي طردته الهجوم على جيرانهم بسبب خلاف حول أرض.

- الواجب أن ترجع العشيرة الأخرى مبلغ الأرض وغرامة يقررها شخص مقبول من الطرفين وترجع الأمور كما كانت.
- جماعتنا معاندون ويريدون الأرض التي اشتروها ولو بالقوة.
- يمكن من باعهم الأرض يريد يوقع بين العشيرتين.

- ما أظن ويمكن يكون أفلس بسبب القمار أو اللهو وباعها حتى يوفي ديونه.

ساد صمت لدقائق ثم قطعه عباس:

- نخبر الشرطة ودعهم يحلون المشكلة.
- أخي الشرطة دائماً تحضر بعد وقوع الفأس بالرأس، ثم سيفتحون التحقيق بالإخبارية، ومن أين سمعتم بها، ومن هو المصدر، يعني يكون الهجوم حصل والناس شبعت موت، ولا أريد توريط أبي بالموضوع لأن أبي شامي سينتقم منه ويطرده من الديرة، وهو عنده سوابق كما تعرف.
- في بلادنا أهون تشعل الفتنة بين الناس من أن تحل خلافاتهم التافهة.
- عندنا فرصة يومان لا أكثر وإلا... تصدع رأسي من التفكير بالموضوع. أحسن أروح لبيتي أرتاح ونلتقي غداً.

خرج عصفور من بيت عباس مهموماً. لن يسامح نفسه لو فشل في منع القتال. رمي المسؤولية على الشرطة هروب من المشكلة، ولو تقاعسوا فستسفك الدماء وسيجدها على يديه مع إشراقة كل يوم. ظل فكره مشغولاً ، ونام لأقل من خمس ساعات أفاق بعدها مذعوراً، تقاتلوا وفاتت فرصة منعه، ثم هدأ لأن موعد المحنة الغد لا الأمس. جلس ليتناول إفطاره مع زوجته. لاحظت زوجته ذبول وجه زوجها بسبب قلة النوم، وخمّنت بأنه بات يفكر بهجوم قبيلته الوشيك على جيرانهم. مدّت يدها لتنوش قطعة خبز فارتطمت يدها بكوب ماء فاندلق الماء بين يدها وصحن الخبز. تسمّر ذهن وعينا عصفور على مجرى الماء المنسكب على المائدة فلم يسمع اعتذار زوجته. قام وخرج من بيتهم من دون سلام.

توجه عصفور إلى شِقة عباس، وجده في ملابس النوم. اخبره بالفكرة التي أوحى انسكاب الماء على الطاولة بها، وتذكر حينئذ بأنه غادر البيت مسرعاً من دون سلام على غير عادته. لم ينتظر عصفور انتهاء عباس من تناول إفطاره، ألح عليه حتى استسلم لرغبته في التوجه من دون إبطاء إلى عشيرة آل خشان.

بعد أقل من نصف ساعة كانا في سيارة مستأجرة متوجهة نحو آل خشان. قبلها توقفت عند محل عصفور لمضخات الماء. فتح عصفور بابه، واستعان بعباس في حمل مضخة ماء صغيرة وخرطوماً طويلاً، وضعاه في صندوق السيارة. طلب عصفور من السائق التوقف عند منتصف مستنقع أو هور كبير امتد من على جانبي الطريق نحو الأفق. تهامسا بعيداً عن مسامع السائق، ثم علما المكان بأحجار على شكل هرم، وركبا السيارة. عند قرية آل خشان سألا أحد المارة عن مضيف شيخ العشيرة فدلهما عليه.

سلّما ودخلا المضيف. قام رجل ستيني قصير القامة خطت التجاعيد وجهه فتبعه بقية الحاضرين. صافحا الشيخ والبقية فوسع لهما الجالسان بجانب الشيخ المكان. بعد تناول فناجين القهوة المعتادة أدنى عصفور رأسه من الشيخ وخاطبه بصوت خافت:

- محفوظ! أنا اسمي عصفور وهذا صديقي وأخي عباس محامي. كان بودنا أن نأتيك بأخبار سارة، لكن مع الأسف جئنا نحذركم من شر قادم لكم ونريد منعه عن جنابكم والعشيرة. لو سمحت نتكلم على انفراد.

نظر الشيخ إلى عصفور ملياً ثم قام وأشار إليهما بمرافقته:

- تفضلوا معي ويصير خير!

بيت الشيخ متواضع، بناء من حجارة لبنية وطين. في غرفة الجلوس خمس مقاعد قديمة اهترأ قماشها، وبرزت رفاسات إحداها عبر القماش الممزق.

- خير ما هو هذا الشر؟
- أنت على علم محفوظ بالخلاف بينكم وبين قبيلة البعيكان.
- نعم! مع الأسف.
- عرفنا من مصدر موثوق بأنهم ينوون التعدي عليكم بالسلاح عصر هذا اليوم.

توقع عصفور رداً انفعاليا من الشيخ لكنه احتفظ برباطة جأشه وكأنه يعرف بالأمر مسبقاً أو تهيأ له.

- يعني الجماعة لا يريدون حل الخلاف حبياً لكن أن توصل للقتال فهذا عمل لا يقبله دين ولا ناموس.
- هذا عين العقل لكن ما العمل مع ناس عطلوا عقولهم وضمائرهم.
- طيب يا سيد عصفور ويا عباس المحامي كيف نوقفهم ونمنع العراك والقتل؟
- فكرنا نبلغ الشرطة لكن غير خافي عليكم الشرطة لا تتحرك بمثل هذه القضية إلا بأمر من فوق، وهنا تتدخل السياسة والقضية حامية ولا تنتظر التأخير.
- كلامك صحيح والتدبير؟

رد عصفور مشبهاً بأصابع يديه عمل مقص:

- نقطع عليهم الطريق.

وأكمل:

- محفوظ هم يخططون لمباغتكم وقت العصر وجماعتك في السوق والمقهى ويرشونهم بالرصاص.

لأول مرة أحتد الشيخ في كلامه:

- لا يا أولاد خشان! يريدون يغدرون بكم.
- لا! يخسون!
- يعني نكمن لهم في الطريق ونتغدى بهم قبل ما يتعشوا بنا.
- محفوظ! هدفنا نوقف القتال ونمنع إزهاق أرواح ناس عرب مسلمين.
- كيف؟
- نغرق الطريق من أمامهم فلا يمكنهم المرور باللوري وتضيع أولاً عليهم فرصة المباغتة ويتراجعون.
- وما الضامن لعودتهم بعد يوم أو أسبوع؟
- نريد نتّوبهم عن التفكير بالهجوم عليكم في المستقبل أيضاً. سنقطع عليهم طريق العودة فينحصرون في الوسط، وستحضرون لهم مفاجأة أخرى.
- مفاجأة!!
- هذا الهور أكيد فيه خنازير.
- ما أكثرها من حيوان ردئ مخرب وقاتل. زين! ما المطلوب من عندنا؟
- بعد موافقتكم سنغرق الطريق من جهتكم بالمضخة الموجودة معنا، وأتصل بالمسؤول عن محل المضخات في أم السرجين لمراقبة شاحنة جماعة البعيكان وبعد وصولها إلى المكان المقطوع بالفيض يقف بالسيارة عن بعد ويفيض الطريق بالماء من جهته ويعود إلى أم السرجين فينحصرون المسلحون

وعندها يبدأ جماعتكم مطاردة الخنازير من الاتجاهين نحو الشاحنة والمسلحين ومن ثم يتصل جنابكم بالشرطة لإبلاغهم بهجوم مسلحين على أرضكم.

- أما خطة جهنمية!
- بل قل رحمانية شيخنا! لأنها ستنهي الخلاف بين القبيلتين بتدخل السلطات العليا فتتم المصالحة بالعدل وكل واحد يأخذ حقه ويتعهدون أمام الحكومة بعدم معاودة التعدي عليكم.
- أنا موافق. خلينا نتوكل على الله وسأبدأ بجمع رجالنا وتوجيههم.
- بعد رخصتك أحتاج اجراء مكالمتين مع أم السرجين لإنجاز الخطة.
- وعدوا بمدّ خط هاتف إلى بيتي قبل سنين وبدون نتيجة لكن يوجد في مكتب بالقرية خط وحيد. أرسل معك أحد رجالنا حتى يوافقون على المكالمة.
- بودنا أخي عباس وأنا المشاركة مع رجالكم في تهييج الخنازير.
- لكن فيها خطر عليكم.
- لذلك لا بد أن نتحمل المخاطرة مع رجالكم لأن الفكرة من عندنا.
- طيب مثل ما تريدون.

بعد اجراء المكالمتين، الأولى مع نجلاء ليبين لها سبب مغادرته البيت على عجل والثانية مع الإيراني مسؤول محل المضحات، توجه عصفور مع عباس في السيارة إلى الموقع الذي اختاره لإفاضة الماء على الطريق، وبعد الانتهاء عادا إلى مضيف آل خشان، فوجدا الرجال مجتمعين بانتظار بدء تهييج خنازير الهور. وزع الشيخ رجاله إلى مجموعتين. انطلقت المجموعتان في قوارب صغيرة نحو الهور،

وتوقفتا عند طرفيه بانتظار وصول شاحنة المسلحين وقطع طريق رجوعها بالماء من قبل الإيراني.

قاد الشيخ عصفور إلى قارب كبير داخل الهور غير بعيد عن مضيف القبيلة. كانت المجموعة من رجال القبيلة بانتظارهما، فما أن وصلا حتى قام الرجال وهتفوا بأهزوجة تحية للشيخ وضيفه، فاهتزت القوارب الصغيرة التي امتلأت بهم من جراء حركتهم، فأشار الشيخ لهم بالتزام الهدوء. تحرك الموكب بسرعة نحو أطراف الهور الشمالية، وبعد أقل من نصف ساعة أخذت القوارب موقعها بين قصب البردي. ساد سكون غير اعتيادي في الهور، وبالعادة لا ينقطع ضجيج الضفادع وأصوات الطيور، وكأن مخلوقات المكان أدركت بحواسها الغريزية حدثاً غير معتاد موشك.

بعد انتظار غير طويل، سمح للمدخنين بتدخين سيجارتين لا أكثر لاحت الشاحنة عن بعد فسرى همس بين رجال القبيلة. أنزلوا بنادقهم من على أكتافهم، والمسلحون بالمسدسات فقط سحبوها من أجربتها، وتهيأ الملاحون للتجديف باتجاه الطريق بين البردي. كانت السيارة التي تقل الإيراني قد توقفت على بعد بضعة أميال من الشاحنة ونزل منها الإيراني ليخرج مضخة صغيرة ويبدأ بتشغيلها لإفاضة الماء على الطريق من جهته. كانت تلك إشارة البدء للمجموعتين بالتحرك نحو الطريق ودفع الخنازير نحو الشاحنة المتوقفة. أطلق القبليون رصاص بنادقهم ومسدساتهم في الهواء فردّد صدى ضجيجها جوانب الهور، وحلقت أسراب الطيور من داخل مكامنها بين القصب وسمعت أصوات الخنازير الفزعة. تكرّر اطلاق الرصاص وسمعت أصوات الطلقات من الجانب الآخر. جدف

الملاحون القوارب بين القصب وشوهد عن بعد خنازير ذكور كبيرة واناث أصغر وصغارهم تهرع أمام موكب القوارب.

سمع المقاتلون الذين نزلوا من الشاحنة أصوات الرصاص فظنوا أن مهمتهم قد انفضحت وأعد مقاتلو آل خشان كميناً لهم، فتبدّد جمعهم، رمى بعضهم نفسه في الهور، وانبطح آخرون على الأرض ومنهم من اختبأ تحت الشاحنة، وكانوا قد تركوا أسلحتهم في الشاحنة، فقرر أحدهم الاستسلام، فخلع ثوبه البني اللون ثم فانلته البيضاء وراح يلّوح بها. شاهده عصفور والشيخ من بعد فضحكا وشاركهما بقية رجال آل خشان. انشغال الجمع بالمسلحين المذعورين على الطريق شغلهم عن رؤية ذكر الخنزير البري الذي برز فجأة من بين قصب البردي المتشابكة وهاجم قارب عصفور والشيخ وقلبه فسقط الاثنان في الماء. استعاد عصفور رباطة جأشه وأخرج مسدسه من جرابه وأطلق عدة رصاصات على رأس الخنزير فأرداه، ولو لم يصبه لكان ناباه اخترقا جسد الشيخ الهزيل.

في هذه الأثناء كانت قطعان الخنازير ومن الجهتين قد وصلت إلى الطريق حيث تقف الشاحنة ويختبئ مقاتلو البعيكان، فتعالت أصوات الفزع والهلع منهم، وسارعوا للاختباء تحت الشاحنة وانتظروا حتى مغادرة الخنازير ليخرجوا ويركبوا الشاحنة عائدين صوب أم السرجين. توقفت الشاحنة عند المكان الذي قطعه الإيراني بإفاضة الماء، وظلوا حتى غروب الشمس يناقشون سبل عبور الماء بالشاحنة. رفض السائق سياقة شاحنته على بركة الماء الصغيرة خوفاً عليها من الانحراف عن الطريق الترابي والسقوط في الهور وأصر على شفط البركة أولاً. تطور النقاش الحامي بينهم حتى وصلت سيارات الشرطة تتقدمها شاحنة صغيرة وعلى متنها رشاش

آلي ضخم، وطاردوا المسلحين وألقوا القبض على معظمهم ونقلوا إلى سراي أم السرجين، وأودعوا الزنزانات بانتظار التحقيق معم صباح اليوم التالي.

زار عصفور عواد ليطلعه على أحداث اليوم السابق، أنصت عواد بشغف، وأبدى اهتماماً بمعرفة نتائج التحقيق من عريف شرطي يداوم في السراي. بعد يومين حصل على كل تفاصيل التحقيق. تبين أن بين المسلحين أربعة من أبناء شيوخ العبيكان، أنكروا أثناء التحقيق نية جماعتهم الهجوم بغتة على ديرة آل خشان، لكن إثنين على الأقل أقروا بذلك، وكان أحدهم يرتجف من الخوف، ليس من المحققين الغلاظ إنما من هجوم الخنازير، ظنّه عقوبة من السماء على فعلتهم الدنيئة، وبأنه تصديق لضرب الظالمين بالظالمين، واتهم شيوخ القبيلة بتحريضهم على مباغتة آل خشان وقتل رجالهم، ووافقه آخرون. أصدر رئيس المحققين المبعوث من المتصرفية أوامر القبض على الشيوخ، ومن بينهم أبو شامي.

كانت ظروف حبس الشيوخ هينة، لا يحلم بها أي سجين آخر. جلبوا لهم الأفرشة والأغطية من بيوتهم، وسمحوا لهم بالمبيت في ساحة السراي بدلاً من الزنزانات، وتناولوا الطعام المعد في مطابخ بيوتهم، وثلاث مرات في اليوم حملت لهم صواني الطعام، الإفطار بيض سلوق وزبدة وقشدة ومربى وعسل وخبز حار، وفي الغداء الأرز العنبر المغطى باللحم والدجاج، والسمك المشوي والمقلي، والعشاء طعام خفيف من فواكه وأجبان وألبان. فرح بقية السجناء بما فضل من طعام الشيوخ ودعوا لهم علناً بالإفراج السريع والمؤبد في سرهم.

توسط كبير شيوخ العبيكان لدى خال الملك ليطلق سراح أخوته وأبناء عمه الموقوفين، فصدر الأمر إلى متصرّف اللواء بذلك. تمسّك المتصرف بالقانون ورفض الأمر. غضب الخال وأمر بنقل المتصرف إلى وظيفة ثانية، وحلّ محله متصرّف مطيع سارع لإطلاق سراح الشيوخ. استقبلهم الأتباع عند بوابة السراي بالأهازيج واطلاق الرصاص المحظور. وقف عصفور يشاهد المنظر ويهز رأسه أسفاً على شعب بلاده وحكومته.

احتار عصفور في السبب وراء طلب الزيارة. عرّفه بنفسه: عضو الجبهة التقدمية الحرة. سمع بالجبهة وقرأ عنها في جريدة. يطالبون بنظام ديمقراطي وملكية دستورية. مطلب يفرض على الخال التقاعد عن العمل السياسي، أي انقلاب تام على النظام. استقبل عصفور الزائر في بيته. بعد المجاملات الاعتيادية خاطبه الزائر:

- جئت بطلب من أعضاء الجبهة لأعرض عليك الترشح للانتخابات النيابية القادمة.

ذهل عصفور. توقع طلباً للتبرع لا الترشح.

- هذه ثقة عظيمة من جبهتكم الموقّرة لا أعتقد بأني أستحقها.

كان الزائر مستعداً لهذا الجواب وجاء متحضراً للنقاش والاقناع.

- نحن في الجبهة ندرس سيرة كل من نرشحهم ولا نوافق على أحد إلا بعد التأكد أو حتى التيقن من استحقاق من نرشحه لهذه المهمة والمسؤولية الكبرى.
- أنا لا أشك أبداً بموضوعية اختيار جبهتكم لكن بصراحة لا أرى جدوى من العمل بالسياسة في الوقت الحاضر والظروف غير مؤاتيه.

شرب الزائر حسوة من كوب العصير واستفهم:

- أنت متشاءم جداً فما هي دواعي ذلك؟

مال عصفور بجسده نحو الزائر:

- القبلية يا أستاذ! مجتمعنا قبلي حتى العظم ولن يتخلى عن قبليته بسهولة أو حتى قيام الساعة.

بانت دهشة حقيقية أو مصطنعة على وجه الزائر:

- ما سر هذه القبلية الأبدية في تقديرك؟
- لأنه لا يوجد بديل اجتماعي وربما سياسي عنها. الناس هنا وحتى في المدن يتمسكون بقبليتهم لأنها ببساطة الملجأ الأمن حيث لا ينفع حزب أو دولة في توفير ذلك.

أراد الزائر الكلام فقاطعه عصفور:

- عفواً على المقاطعة. لو سمحت سأكمل لك فكرتي. قبل أشهر كاد أن ينشب قتال دموي بين قبيلتي البعيكان وآل خشان. توجهت مجموعة من مسلحي العبيكان متخفين داخل شاحنة نحو قرية آل خشان ينوون مباغتهم وقتل عدداً من رجالهم. السبب هو كما أغلب الأحيان خلاف على أرض ومن وراءه تحريض ساسة بغداد، بصراحة البلاط والحكومة. عرفت بالهجوم الوشيك من مصدر وثقة ودبرت مكيدة لمنعه.

ارتفع الزائر المنبهر نصف قدم من مقعده:

- أنت من فعلت ذلك وبالنتيجة قبضوا على شيوخ العبيكان وراجت إشاعة بأن خنازير متوحشة هاجمت مسلحي العبيكان حتى ظن البعض بأنه سخط رباني؟
- نعم! أنا دبرت ذلك بالترتيب مع شيخ آل خشان، وهجوم الخنازير ليس بإشاعة بل حقيقة ونحن دفعناها للهجوم على المسلحين لمنعهم من الهجوم وأيضاً لتأديبهم.

علق الزائر بلهجة عتاب:

- وتقول لي بأنك لا تصلح للعمل السياسي! هذا بالضبط ما تحتاجه البلاد.

- يا عزيزي المكرّم! أصل المشكلة القبلية وعصبيتها وأعرافها وأنا حاولت إبطال نتائجها الوخيمة والحمد لله نجحت لكن كما تعرف في هذه الساعة وكل ساعة ينشب صراع قبلي داخلي أو بين قبائل متجاورة واحد أو ربما عشرة ولا ينتهي إلا بعد سفك دماء وثارات وضياع مصالح.
- وما الحل؟ هل نجلس بانتظار معجزة زوال القبلية؟
- لا الحل هو التعليم ولا أقصد ما لدينا الآن بل تعليم متطور شامل ينمي العقول والنفوس ويغير العادات والسلوك.
- أتفق معك تماماً وكل أخواني في الجبهة يؤيدون هذه الفكرة؟ لكن ألا ترى وجود مؤشرات على تآكل القبلية حتى في أم السرجين وأذكّرك بثورة الفلاحين؟

ابتسم عصفور وأطرق قليلاً:

- سموها ثورة الفلاحين، لكنها مثل الكثير من الظواهر في مجتمعنا اسم على غير مسمى. لم تكن ثورة فلاحين بل خدعة انطلت على البعض، ويؤسفني القول بأن جبهتكم الموقرة كانت ضمن المخدوعين.

قال الزائر مستنكراً:

- مستحيل! لا لا أنت مشتبه!
- لو سمحت لي سأبين لجنابكم كيف حدثت الخدعة ومن المستفيد منها؟
- بدأ تنفيذ ما سمي بثورة الفلاحين باتصال جبهة من اليسار والوسط بأبناء الشيوخ المتحمسين لتغيير النظام أو بالأحرى الساخطين على ابائهم لأنهم لا يزودوهم بنقود كافية للصرف

على لهوهم وملذاتهم وأطلعوهم على خطة لتغيير النظام بدءً بتمرد فلاحي ينجح في أم السرجين فتنتشر شرارة الثورة إلى باقي مناطق العشائر. وافق أبناء الشيوخ خاصة بعد تزويدهم بمبالغ كبيرة. عرف الشيوخ بالخطة وعلى الأغلب من أبنائهم، فشجعوهم على المضي بها بعد إبلاغ المخابرات والأمن. بدأت الثورة بإهزوجات واطلاق نار من قبل الأبناء، فتجمع الثوريون من الفلاحين وسكان البلدة حولهم فسارع رجال الأمن والمخابرات إلى القبض على الجميع ونقلهم إلى السجن السياسي في "نقرة السلمان"، بعد أيام أفرجوا عن أبناء الشيوخ. أبو شامي استدعى ابنه بليد -ليس اسمه الحقيقي أنا عمّدته بهذا الاسم المنطبق عليه- بعد وصوله إلى أم السرجين لا ليهنّئه بالسلامة ويسأل عن حاله بل ليطالبه بحصته من المبلغ المستلم من جبهة اليساريين والوسط. هذه هي حقيقة ثورة الفلاحين في أم السرجين.

بهت الزائر، حتى أن بدلته المكوية بعناية تهدلت على كتفه، وربطة عنقه اعوجت وتململ كأنه يستعد للمغادرة. أوقفه عصفور بإيماءة يده:

- معلومة أخيرة تفيدكم. في الانتخابات الأخيرة أبلغ كبير الشيوخ أخوته بأن الوصي استقر قراره على فوز فلان، وهو رجل مقرب منه لا زار أم السرجين وأشك بأنه يعرف معنى السرجين أجلك الله كما أنه من طائفة أخرى، وجاء الأمر الصارم بضرورة فوزه بالتزكية عن الدائرة الانتخابية في أم السرجين فأذعنوا. أحد الشيوخ والده كان كبير الشيوخ وجده أيضاً، خريج جامعي وعضو في حزب من غير أحزاب السلطة تمرّد ورشح نفسه.

فماذا كان مصيره؟ أرسلوا له زعران اعتدوا عليه بالضرب فسحب ترشيحه. في يوم التصويت استلم أخ أبي شامي صناديق الاقتراع، نقلها إلى بيته، غير بعيد عنا. كتب اسم مرشح الوصي ففاز بالتزكية. فهل لا زلت تريد مني الترشح؟

قام الزائر وصافح عصفور وغادر.

كان يوماً حافلاً للموت. لم يغادر قصرهم حتى حصد كل أرواحهم. ولأنهم قبليون قبل وبعد ماركسيتهم ثأروا من الوصي، جروه في الشوارع وعلقوه مثل شّلو في دكان قصاب، ومثلوا به، وقطعوا عضوه التناسلي، ودسوه في فمه. لم يسمعوا بان لا مثلة ولو بكلب عقور، ولا أظنهم اكترثوا لو سمعوا.

كان انقلاباً فسموه ثورة، لأنهم معتادون على تحريف الكلام عن موضعه، وكأن جدهم الأعلى لم يعلم الأسماء كلها وينجح بتفوق في الاختبار.

كانوا مثل فرقة تمثيل، تغيرت المسرحية وكتبت أدواراً جديدة، ولكنهم وعلى عكس أمهر الممثلين لم يحتاجوا للتمرن على أدوارهم الجديدة. ليس مهماً من تبلس الآخر، الدور أم الشخص، كانوا مستعدين بالوراثة، ربما في جيناتهم ورثوها من أجدادهم، كانوا بالأمس ملكيين أكثر من الملك واليوم أصبحوا جمهوريين أكثر من لينين. أنزلت صور الشاب في زي شرطي مرور وحلت محله صورتي الزعيمين الجديدين، بالأمس كان بائع اللفت المتجول يقبل يد الشيخ المغمور دايخ وينادي على أكلته: راحت أيامك يا مايع، محذراً سامعيه من قرب انتهاء موسم اللفت المطبوخ مع دبس التمر، واليوم ينعق بأعلى صوته: راحت أيامك يا دايخ" نكاية بمن مدّ يده ليقبلها كلما التقاه.

اشتكى موظف البرقيات من الإرهاق، لم يشهد في حياته الوظيفية مثل ذلك الاقبال على خدماته. كلهم أرسلوا برقيات التهاني والولاء للزعيمين. بزّهم أحد الشيوخ من الصف الثاني في حماسه للنظام الجديد. لم تمض أيام بعد إرسال برقيته حتى أفاق سكان أم السرجين على امتلاء طرقاتهم بالجنود المسلحين وآلياتهم العسكرية.

ودهشوا من إعلان منع التجول في البلدة. ظنّ البعض حدوث انقلاب عسكري ثان. بعد التقصي تأكد أن لا منع للتجول إلا في أم السرجين. دخلت ثلة من العسكر برئاسة ضابط قصر أبي شامي واستجوبه عن مكان أسلحة قبيلة العبيكان، فأقسم لهم برأس ابنه الأصغر بأن ليس بحوزته أي سلاح، مخفياً مسدسه الشخصي. بعد انسحاب العسكر من البلدة تبين أن قريبه من بعيد أرسل برقية ولاء للزعيمين يضع بتصرفهم خمسة عشر ألف مسلح من قبيلته، في ذلك الزمن كان للجيش ثلاث فرق يقل تعدادها عن مسلحي العبيكان المزعومين.

تلك سنة المدّ، لم يكن مدّاً مائياً ولا مدداً غيبياً، بل مدّاً أحمر. احتلت جموع حاملي البيارق الحمر غير الحسينية طرق أم السرجين. من قبل لم تشهد سوى مظاهرة واحدة من أجل فلسطين نظمها عصفور. لا تكتمل مظاهرتهم من دون حبال السحل. في تلك السنة ازداد الطلب على حبال الغلاظ الجنبة فارتفعت أسعارها. طافت مظاهرات السحل والتنديد بالإقطاعية والرجعية في البلدة كل مساءٍ، كان قصر أبي شامي محطة ثابتة في قائمة المتظاهرين، وتأسفوا لأن أخاه الأكبر مصطاف في جبل لبنان فأفلت من أمر إلقاء القبض لكنهم تظاهروا أمام بيته الخالي. في كل وقفة أمام كل قصر ومنزل هزجوا وردّدوا الشعارات المطالبة بالمشاركة في الحكم وابطال عادة دفع المهور ورمي قضاة الشرع في النهر ولوحوا بالأحبال الغليظة توعداً بالسحل. وعند الحاجة تبرزوا عند ضفة النهر كالعادة المتأصلة في النفوس.

انقضى صيف سنة الانقلاب وبدأت المدارس وجاء " الجميلي"، مدرس الرياضة في المدرسة الابتدائية، وكل الأسماء قابلة للنسيان

إلا هو، فلا بد من حفر اسمه في ذاكرة البلدة وسكانها، جيل بعد جيل، لكي يبقى عارهم الأبدي.

أم السرجين بلدة شيعية، سكن فيها عدد قليل من السنة والصابئة وطبيب مسيحي واحد. كان الجميلي أحد السنة القلّة، سني أولاً قبل أن يكون شيوعياً، فكان شذوذه على القاعدة الاجتماعية مضاعفاً. لا أظنه قرأ عن تحذير ماركس من الدكتاتور القروي، لم يكن زعيماً قبلياً في قبيلته لكنه طمح إلى أن يكون دكتاتوراً قروياً في أم السرجين، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً. ركب المدّ كما نصح هيجل وبلغ ذروته، رفيقاً مقداماً مقداماً، جديراً بعلم المنجل والمطرقة، وحامل لواء حبل السحل المقدس. بدأ تمارينه التسلطية في المدرسة الابتدائية. تأبط مدير المدرسة المصلاوي. أطول قليلاً من قزم، أحمر الشعر فسماه التلاميذ طماطة، حاد الطباع، وصوته أنثوي رفيع وبلهجة مصلاويه، حتى طلاب الصف الأول سخروا منه في ظهره بالطبع. أما الجميلي فركبه من رأسه، فلم يجرؤ المصلاوي على رفع عينيه للجميلي.

اختار ضحيته بعناية، الأبن الأصغر لأبي شامي، طالب في الصف الخامس، لم يتجاوز العاشرة من عمره. في صباح كل يوم دراسي وأثناء الاصطفاف الصباحي مشى نحو قرة عين أبي شامي، ووضع حبل السحل في عنقه. وصاح بأعلى صوته الجشّ وشاربه الستاليني تهتز ورذاذ بصاقة يغسل وجه الطفل المرتعب:

- هذا هو مصير كل اقطاعي.

جهل الطفل معنى إقطاعي. اشتكى لوالدته العلوية، فلم تسعفه بسوى دعوات لأجداده غير مستجابة، وحرق بخور وحرمل وغسل بطاسة الخلاص أو الرعب، أما أبو شامي فهرب من عذاب ابنه إلى

نشرات أخبار الإذاعات الأجنبية، لعل وعسى نبأ عن انقلاب آخر، يعيد أخاه الأكبر من منفاه في مدينة عاليه اللبنانية، وينقذ ولده من حبل الجميلي. بعد إلحاح من زوجته أم الطفل طلب من شامي الذهاب إلى مدير المدرسة ليتوسط عند الجميلي. شامي لا يود أخاه الأصغر غير الشقيق الذي لو سحله الجميلي على طرق أم السرجين المليئة بالحصى والروث والسرجين والبصاق لاختنق ومات في دقائق فلن يشاركه في الميراث. سواءً امتثل لطلب أبيه أم تظاهر بذلك فلم يأت بخلاص للصبي.

تمدّد المدّ الأحمر وعلى قمته الجميلي إلى أم السرجين، جاءت فرصته في حملة معونة الشتاء. احتل السراي رغم أنف الحاكم والقاضي ومدير الشرطة المخانيث. نصب مكبراً للصوت وصار ينادي على سكان البلدة ليتبرعوا لمعونة الفقراء. لم يكن رفاقه كثر فلم يتغلب بالكثرة، ولا كانوا مدججين بالسلاح فخاف منهم أهل البلدة وما حولها من القبائل وهم أكثر تسليحاً. خنسوا خوفاً من الجميلي وهم بالعادة يقتلون من ينتقدهم أو حتى ينصحهم، ويتقاتلون وتسفك دماءهم لو رعت بقرة من زرعهم أو اختلفوا على أولوية سقي زرعهم. في مدن وبلدات أخرى قتل رفاق الجميلي الرجال والنساء وعلقوا جثثهم على أعمدة الكهرباء ولم يحرك الزعيم الأوحد خرومي ساكناً، لكن الجميلي اكتفى بالتلذّذ بتمريغ جبهات أم السرجين وقبائلها في السرجين.

خرج عليهم الجميلي يوماً بتمثيلية، كان أحد شخوصها الصبي ابن أبي شامي، الشيخ سابقاً والاقطاعي لاحقاً، لعب فيها دور ابن عائلة فقيرة داهمها برد الشتاء والجوع وباتفاق مع رفيقاته في مدرسة

البنات زودوه بفتاة أكبر سناً من ابن أبي شامي لتؤدي دور والدته. أجادت دورها ونطقت بالحوار من دون ارتجاف أو تلعثم.

- أنا جائع! أنا بردان!

إن بلغ صوته المرتجف والدته في غرفتها داخل قصر أبي شامي لبكت ورفعت صوتها بالدعاء لأجدادها المقدّسين ثم بكت وناحت. عندما يكبر ابنها ويشرده حكام وسكان بلاده وينهب أقاربه والقبليون أرضه وبيته سيقضه البرد في منفاه المتجمد ويشح رزقه، إذ ليس الجميلي وحده الظالم بينهم.

بعد التمثيلية تناول الجميلي مكبر الصوت ليملي على أهل أم السرجين مطالبه. لم ينتظر مبادرتهم للتبرع. أعد مسبقاً قائمة بالمتبرعين والتبرعات المطلوبة من كل واحد منهم. أبو شامي على رأس القائمة بعشرة أكياس من الأرز العنبر، وكل كيس يزن مئة كيلوغرام. استلمها الجميلي مع بقية "التبرعات". إن كنتم تصدقون بأن فقراء أم السرجين تذوقوا وربما لأول مرة في حياتهم طعم الأرز العنبر صنف الشامية درجة أولى فأنتم سذج واهمون.

لم يرد اسم عصفور على القائمة، فهو في نظر الجميلي قهوجي برجوازي صغير لا يستحق اهتمامه، ولو شرب شاياً في مقهاه لما تكلف دفع ثمنه، لكن عصفور غلبه بتبرعه بعشرة أكياس من السكر وعشر صناديق من شاي سيلان الفاخر. ولمن لا يعرف عادات الطعام لدى قبليي أم السرجين هي لا تقل أهمية من أرزهم العنبري لأنهم تعودوا على الإفطار صباح كل يوم على أكواب شاي محلاة بالسكر أحلى من دبس التمر، ويكفيهم غداءً من مرق ورغيف خبز، والنوم على الطوى. جال صبيان قهوة عصفور أرجاء بلدتهم والقبائل

القريبة منها ليبلغوا الداني والقاصي حضور أرباب العوائل لاستلام كيلوغرام من السكر وأوقية من الشاي في الموعد المحدد. حضر المئات واستلم كل واحد منهم حصته وغادر يلهج بالحمد والدعاء لعصفور. سمع الجميلي بذلك فاعتبره تمرداً على سلطته وتوعّد عصفور والقرويين بشر انتقام.

ينصحون العريس بذبح قط أمام عروسه لتخافه فلا تحاول التسلط عليه، وكانت أم السرجين بمثابة عروس للجميلي، فأراد إثبات رجولتها عليها، ولأنه من جنس دون البشر والحيوان اقترف فعلته الشنيعة، ولأنه جبان اختار أضعف سكانها لذلك. دخل الجميلي الصف فوقف الطلاب إجلالاً وفرقاً، وامتثالاً لبيت الشعر الرديء قف للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولاً، في ذلك اليوم كان الجميلي يستحق الشتم القبيح لا التبجيل والقتل والوقوف على جثته لأنه كان رسولاً من الشيطان.

طلب من "الدبي" الوقوف عند السبورة. الدبي صبي يميل إلى السمنة على عكس بقية التلاميذ ضّامري الأجسام وصفر الوجوه من الجوع وسوء التغذية وديدان البطن. الدبات مكروهون محسودون لأنهم رعاة الجاموس يتغذون بحليبه وزبدته وقشدته. شهد شاهد من طلاب ذلك الصف بأن الجميلي طلب منهم اغماض أعينهم ثم اغتصب الطفل الدبي، وكان باب الصف مفتوحاً ونافذتها العريضة مشرعة فلم يكترث الجميلي لو رأه أحد، ومن عادة المدير المصلاوي القميء التجول على الصفوف ومراقبة المعلمين والطلاب.

كِذب سكان أم السرجين وقبائلهم لو ادعوا بأنهم لم يسمعوا بفعلة الجميلي، فشهود العيان أربعون صبياً أو أكثر في ذلك الصف المكتظ تظاهروا بإغماض عيونهم لكنهم تجرؤا على إفراجها قليلاً

ليشهدوا ذلك المنظر المفجع، ولعل الدبي اشتكى هو الآخر لأمه وأبيه فنقلوا الشكوى إلى جيرانهم. سكت السرجانيون وقبائلهم على الجميلي الأدنى من الحيوان.

كان الجميلي أشر من كلب عقور، نهش بجسد طفل بريء، وكل حباله وحبال رفاقه لا تكفي لسحله، والتمثيل بجثته العفنة حلال بل واجب. لكن سكان أم السرجين وقبائلها الغيورون على شرفهم حتى الذبح وقطع الرؤوس والأيدي سكتوا على فعلة الجميلي، ولو فتحنا أدمغتهم ونفضنا عنها خيوط عناكب الدهر لسمعناها تفكر هكذا:

- ما لنا والدبي دع أهله وقبيلته يأخذون حقهم من الجميلي.
- الجميلي لا يخاف ولا يستحي وعقابه ليس من البشر.
- إذا قتلناه يرسلون جماعته ويذبحونا مثل ما عملوا بأهل الموصل.
- أين الحكومة عمي؟ لكن كبيرهم الزعيم مثل الجميلي، هم أعزب وما عنده بزر ويمشي مثل المنا...
- قالوا لنا سجلوا أولادكم بالمدرسة ودار المعلمين حتى يصيروا معلمين ويقبضون كل شهر كومة دنانير. إبني فلاح أو حتى مكاري فقير أشرف له من معلم مثل هذا الجميلي.

لو كانت غزوة مغولية، استحلوا البلدة فقتلوا معظم رجالها ونهبوا حلالهم واغتصبوا نساءهم لمات من تبقى منهم قهراً وخزياً، لكن الجميلي كان فرداً غزاهم فانهزموا، واستمرت حياتهم كأن شيئاً لم يكن. لو رميت حجراً على بلدتهم وقراهم لوقع على "فرخجي"، هو من يشتهي اغتصاب الصغار، هم لا يسمونه اغتصاباً، ولأن فاعليه كثر صار ضمن ذلك المجال الكبير بين المقبول المباح والمكروه، ومادة للتندر لا الاستنكار والعقوبة، فإذا كان الصبي فرخاً اليوم

فسيكبر ليكون فرخجياً، فينتقم ممن اعتدوا عليه بالاعتداء على آخرين، ولتستمر السلسلة.

بلغ الخبر عصفور، فلم ينم تلك الليلة. في الصباح سألته نجلاء عن سبب سهاده فتهرب من الإجابة. أمهل سكان البلدة وقبائلها أسبوعاً لينتقموا من الجميلي، وعندما شاهده يتبختر أمام مقهاه، سلّم فلم يرد عصفور السلام توصل إلى قرار.

توجه في اليوم التالي إلى النجف. سأل في السوق الكبير عن صانع دمى. بعد حوالي ساعتين من التحري والإرهاق دلوه على بيت في أطراف المدينة. اكترى عربة يجرها حصان. دق باب البيت فخرج رجل في منتصف العمر. طلب عصفور منه صنع دمية رجل وأعطاه بقية المواصفات، فاستمهله صانع الدمى ثلاثة أيام لإنجاز الطلب. رجع عصفور في اليوم الرابع ليجد الدمية في باحة بيت صانع الدمى متكأه على الجدار ومغلفة بورق أسمر. بدت له كمومياء فرعونية. حملها إلى سيارة الأجرة التي استأجرها من أم السرجين وعاد إلى بلدته وخبأها في مخزن مضخات الماء.

انتظر عصفور حتى نامت زوجته وولديهما قبل خروجه من البيت وتوجهه إلى المخزن. حمل الدمية من المخزن ومعها قطعة من الورق المقوى وقنينة صغيرة مملوءة بالبنزين وسار بجاب جدران البيوت حتى الشارع الرئيسي. تأكد من خلو الشارع من المارة. وضع الدمية وسط الشارع ودلق عليها البنزين، وأشعل النار فيها، وغير بعيد ترك قطعة الورق المقوى كتب عليها: هذا مصير من يعتدي على أطفالنا يا جميلي، ثم عاد إلى بيته.

كانت الدمية المحروقة حديث الناس في اليوم التالي. تقاطروا على المكان ليشاهدوا ما تبقى من آثار الحرق. أزال كناس البلدية العجوز بقايا الدمية، ثم صعد إلى سطح مبنى مجاور وعلق قطعة الورق المقوى ليراها المارة. شاهد عصفور الجميلي عند مكان الحرق. دار حوله مرتين ثم ابتعد مسرعاً.

استغرب الجميلي وصول ظرف باسمه إلى المدرسة. استلمه من مدير المدرسة، وحمله جانباً بعيداً عن الأعين الفضولية. فضّ الظرف فوجد داخله رسالة. قرأها ثلاث مرات. خلت الرسالة من التحيات المعتادة والأمنيات الطيبة. وجف قلبه بعد الاستهلال: إلى الجميلي القذر. أكمل القراءة: أنذرك ثمان وأربعين ساعة لمغادرة أم السرجين من دون رجعة وإلا فسيكون مصيرك أسوء من الدمية المحروقة. سأجدك أنا وجماعتي ونقبض عليك ونقودك إلى مكان منزو ليبدأ تعذيبك. سنضع سيخاً حديداً في مؤخرتك، ونقطع أعضاءك التناسلية لنرسلها فيما بعد إلى أبيك ليعلقها على مدخل بيتكم دليلاً على عاركم، وسنصب قنينة كبيرة من العرق الذي تشربه كل ليلة ونتسلى بسماع توسلاتك ونسخر من توسخ ملابسك ببرازك ثم نحرقك لتكون عبرة لمن اعتبر.

كانت كتابة رسالة التهديد مؤلمة لعصفور. استغرقت ساعات، ومسودات عديدة، وتقززت نفسه من تفاصيلها، تعذيب وتقطيع أعضاء ثم حرق، ومجرد تخيل ذلك افزعه، لكنه اقتنع في الآخر بأن الجميلي مثل جرح غائر في جسد المدرسة والمجتمع لن يندمل بدواء فلا بد من القطع. ماذا لو تجاهل التهديد واستمر في عمله وسلوكه الشائن؟ تصور عصفور نفسه كامناً للجميلي وأثناء خروجه من بيته المستأجر أو نادي الموظفين وبعد التأكد من خلو المكان من المارة

يطلق الرصاص عليه. سأل نفسه إن كان عصفور المسالم الذي لم يؤذي أحداً في حياته قادراً على قتل إنسان ولو كان مستحقاً القتل فاحتار في الجواب.

دق جرس بدء الدوام. هرع التلاميذ إلى صفوفهم. وجود الجميلي في الساحة وبيده الظرف سرّع من حركتهم. بعد خلو الساحة أفاق الجميلي من شبه الغيبوبة التي دخل فيها بعد قراءة الرسالة للمرة الثالثة. نسي جدوله حتى جاء المدير المصلاوي وأرشده. دخل الصف مثل السائر في منامه، وجلس خلف المكتب ثم صرخ بالتلاميذ ليخرجوا، وأتبعهم بالسباب الفاحش. سمعه المدير المار بالقرب من الصف فتجاهل سلوك الرفيق غير اللائق بمعلم وابتعد خائفاً.

جلس الجميلي يقلب الفكر في الرسالة. احتار في الحكم عليها، إن كانت مجرد تهديد أجوف لا تستحق اهتمامه أم نية جادة للانتقام منه. لو أبلغ الشرطة وأطلعهم على الرسالة فسيفتحون تحقيقاً، ولا يدري أين سينتهي الأمر، وسيكون موقفه أمام الرفاق ضعيفاً ومذلّاً، وهم يعتمدون على قيادته وجرأته.

غادر المدرسة من دون ابلاغ المدير. سار بسرعة يتلفت كل بضع خطوات. عند باب البيت المستأجر مع أربعة من الرفاق الحزبيين عزم على المغادرة فوراً. وجد البيت خالياً. حزم حقيبته وتوجه إلى موقف سيارات الأجرة ومن هناك إلى أقرب مدينة ومنها إلى العاصمة.

لو احتصرت أمعاء الجميلي أثناء فراره من أم السرجين وهرولته نحو موقف سيارات الأجرة لانحدر نحو ضفة النهار يقضي حاجته من دون استنجاء، وكل أمثاله فعلوها، وكذلك قادتهم وحتى القمم. عندما عمل الزعيم الأوحد خرومي في أم السرجين هو الآخر قصد ضفة النهر، ومن بعده الرئيس المؤمن لكن على ضفة نهر آخر، وكذلك الأب القائد واخيراً وليس آخراً القائد الضرورة. أتدرون لم فاضت الأنهر عندنا قبل بناء السّدّود؟ لغسل أدراننا، أما العمل الزين الذي قذفوه في الشط على حد تعبير قولهم الحكيم فلا يساوي جمعه حمل بعير.

لم يكن الجميلي أولهم ولا آخرهم، ولو تحصوهم فلن تغادروا صغيراً أو كبيراً. جلس عصفور في مكتب صديقه عباس يحتسي كوباً من الشاي، ويراقب المارة في السوق. وقفت امرأة عجوز بباب المكتب، وظلت واقفة حتى ناداها عصفور:

- مساك الله بالخير حجية!

رفع عباس رأسه وأشار إليها بيده بالدخول وهو يبتسم. سلمت ولم تجلس. خاطبها عصفور:

- ارتاحي أمي! لا تظلين واقفة.

جلست العجوز على الأرض.

- ماذا تأمرين حجية؟

غطت العجوز وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء. نهض عصفور من مكانه. بدا وكأنه أراد تطييب خاطرها ثم عاد وجلس.

- حجية! أمي! ليش تبكين؟ نحن أولادك، وعند عينك.

رفعت رأسها لترد:

- إبني! وليدي الكبير.

ثم عادت للبكاء والأنين ولطم الصدر. سألها عباس:

- أخذوه وما يريدون فكّ أسره.
- - من أخذه؟
- الشويعيين.
- عجيبة ولأي سبب أخذوه؟

مسحت دموعها واعتدلت في جلستها:

- يقولون مخرب. إبني فلاح يزرع بدل والده المريض. مشى يجيب شاي وشكر من السوق وهناك لزموه.
- الشويعيين؟
- اشتكيت عند الشرطة؟
- رحت وطردوني. قلوا لي تفاهمي مع الشويعيين.
- تفاهمت؟
- قالوا يريدون دنانير حتى يفكون أسره. عشر دنانير. من أين لنا؟ حتى لو بعت كل ما عندنا ما تجيب دينارين. أقول الصدق. عندنا بقرة وحلانة تمر لو بعتها نموت من الجوع.

نظر عباس إلى عصفور متسائلاً:

- والعمل؟

مدّ عصفور يده إلى جيب سترته، سحب محفظته وأخرج منها عشرة دنانير.

- أمي الحجية! لا يهمك ولا تبكين! ترى دموعك غالية علينا. هذه عشرة دنانير فكي بها أسر ابنك من الشويعيين. وإذا سألوك كيف دبّرت المبلغ قولي لهم تدينتها.

قامت العجوز تريد تقبيل يد عصفور فسحبها بسرعة:

- أستغفر الله حجية.

طفرت الدموع من عيني العجوز الغائرتين بفعل المرض والإهمال.

- هذا دين برقبتنا أنا وأولادي والله يقدرنا ونرده.

ابتسم عصفور:

- لا تشيلي هم أمي! كله من عند الرزاق الكريم.

قامت العجوز وغادرت المكتب وهي تدعو لهما بطول العمر وعمار البيت.

على مدى شهرين صرف عصفور عدة مئات من الدنانير لدفع الرشى واطلاق سراح محتجزين أبرياء. علق عباس على ذلك:

- اعمل زين وذب بالشط.

كانت آخر زيارة للزعيم خرومي إلى الإذاعة. لم يلق فيها خطاباً مطولاً ومكرراً ومملاً، يسهر لسماعه ومشاهدته طلاب المدارس أملاً في إعلانه اليوم التالي عطلة رسمية. أقعدوه على كرسي، حاكموه على عجل وأعدموه.

مات الزعيم خرومي فعاش الزعيم الجديد فارع. لا يحتاج زعماء بلاد عصفور لقراءة كتاب الأمير لمكيافلي ليتعلموا منه أن الزعامة تدوم بالترهيب لا التحبيب. بدأ عصر ترهيب جديد، وتقاطر المستنجدون بعصفور وعباس لاقتراض نقود لتخليص أقاربهم من الإرهابيين الرسميين الجدد.

في بلاد عصفور يسبت الإرهاب ليستعيد نشاطه ويكتسب قوة جديدة ثم يصحو، لا تهم التسميات، مقاومة شعبية أم حرس قومي أم جيش شعبي وحتى الإرهاب المدني، للعملة وجهان وللإرهاب دولة أم السرجين عدة أوجه. في 1970 ساعد عصفور مائة شاب بمئة دينار لكل واحد ليعودوا إلى مزارعهم وأعمالهم بدلاً من تعلم المشية العسكرية والرمي بالبندقية مرة واحدة ثم القتل على سفوح جبال الشمال.

وزعت الحكومة بذور مسممة على الفلاحين، وكعادتهم أكلوا منها وباعوا، فمات البعض وفقد آخرون أبصارهم. تخوف البعض من انتقام الحكومة فرموا ما تبقى منها في النهر. حزن عصفور على الضحايا وعلى النهر ومخلوقاته. عرض عليهم شراء ما لديهم من بذور بسعر مغري فاستجاب البعض.

يكره عصفور كل أنواع العنف إلا الدفاع عن النفس والعقاب العادل، لذلك خاطر في مساعدة العشرات على التهرب من المشاركة في الحرب على الجيران.

جاء المحتلون ونشب صراع بين الطوائف، أشد سفكاً من نزاع محدود وأقل من حرب أهلية. انهمك أحفاد قابيل في قطع الرؤوس وقذفها في النهر المظلوم. كلّف عصفور ملاحي القوارب بانتشال الرؤوس من الماء، ووعدهم بمكافأة سخية مقابل كل رأس بشري. يستلم عصفور الرأس ويصوّره ويرقّمه ويكفّنه ثم يدفنه في أرض اشتراها لهذا الغرض في أطراف أم السرجين. كان ذوو المفقودين يأتون من مناطق بعيدة للاطلاع على صور الرؤوس المقطوعة على أمل ألا يكون مفقوديهم من بينها.

في يوم صيفي خرج الكهل عصفور من بيته. كان كل أعزاءه قد توفوا، والداه وزوجته نجلاء وأبوها عواد وعباس، وأغلق المقهيين ومحل بيع وصيانة المضخات والأليات الزراعية. مشى يتوكأ على عكازته على الرصيف المحاذي لشط أم السرجين. لم يغيروا اسم بلدته. تذكر المقهى الصيفي. توقف ليلتقط أنفاسه. كان الشارع خالياً تقريباً من المارة. ما أن تميل الشمس نحو الغروب حتى يخنسون في بيوتهم. سمع ضحكاً فاجراً عالياً فالتفت ليرى إثنين من جنود الاحتلال الأمريكي واقفين أمام جدار السراي. تبين له بأنهما يبولان على المبنى الذي يرتفع فوقه علم البلاد المقدّس. من يساره أحس بحركة عند جرف النهر. اثنان أيضاً مقرفصان يتغوطان، جندي من المحتلين أيضاً وبجانبه دليل عراقي. انحنى عصفور والتقط حجراً وقذفه باتجاه المقرفصين، فأخطأهما. التفت الجندي الأمريكي ونهض من مكانه. أخرج مسدسه وأطلق رصاصة باتجاه عصفور

فأخطأه. قلّده رفيقه العراقي فأصابت رصاصته كتف عصفور، وكاد أن يفقد توازنه. بعدها بثواني انهار الرصاص عليه من الأربعة فسقط على أرض الرصيف وتدحرج نحو جرف الشط. عند تلك اللحظة تحركت موجة مفاجئة نحو الجرف وسحبت جثة عصفور الهامدة إلى أعماق النهر.

غادر الجنود الثلاثة ودليلهم على عجل. شهد سائق سيارة أجرة غريب عن أم السرجين إعدام عصفور. ادعى بأنه سمع صوت نواح صادر من النهر عند سقوط جثة عصفور في الماء. كذّبه الناس، بعد مقتل عصفور نسى الجميع ذكره وكأنهم سحروا، ومحي اسمه من السجلات ونهبت أملاكه، ولو تمنى أحدهم وجود إنسان مثل عصفور لقالوا عنه مخبول، لأن مثله يستحيل وجوده في أم السرجين ولا حتى بلاد أم السرجين بطولها وعرضها.